حلم يقظة

مجموعة قصصية

هيثم الورداني

الطبعة الأولى ٢٠١١

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: ٢٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)

www.darmerit.net

merit56@hotmail.com

الغلاف: أحمد اللباد

المدير العام: محمد هاشم

رقم الإيداع: ٢٠١١/٣٠٤٢

الترقيم الدولى: 978-977-351-577-8

هيثم الوردانى

حلم يقظة

مجموعة قصصية

دار ميريت

القاهرة ٢٠١١

اليوميّات

على جدار شركة الاتّصالات في شارع تسويجهوف كتب أحدهم بخطّ أسود: انتفاضة كونية Global Intifada، ورسم بجانب ما كتب شارة الفوضويين - دائرة يتوسّطها حرف A. فأتى آخر وشطب الانتفاضة الكونية بجرّة قلم مبقيًا على شارة الفوضوية وكتب تعليقًا برّر فيه فعله بأنّه: ضدّ أعداء السامية Gegen Antisemiten. وفوق مرحاض بار في شارع شليزشه خطّ أحدهم بأحرف كبيرة: FUCK USA, FREEDOM IS THE ONLY WAY، فعبّر آخر عن استغرابه بعلامة استفهام وكتب بجانبها متسائلاً عن هوية كاتب تلك العبارة: HAMAS? fuck HAMAS، فردّ ثالث بعلامة استفهام أخرى وتحت عبارة الثاني كتب: CIA? fuck CIA، وبقي السجال دائرًا تحت مربّع الطلاء الأبيض الّذي دهنه صاحب البار على جدار المرحاض. وفي ميدان شبريهفالد ألصق رجل ورقة صغيرة مكتوب عليها: Fuck Islam، ومرّ عليها بعد أيّام فوجد كلمة إسلام مشطوبة وبدلاً منها كُتبت كلمة: Nazi. على حائط وراء مقعد في شارع ليجنتسه جلس بن لادن متربّعًا وهو يحيّي بوش، ووقف بوش متحدّيًا وهو يحيّي بن لادن، وبينهما كلمتا

الإرهاب والحرب تجمعهما إشارة مساواة. بجانب نافذة الطابق الأرضي في كلّ بيت من بيوت شارع ناونين يطلّ رجل المطر بحروف سوداء مدببة الأطراف، أمّا في شارع فالدامر فتظهر بياض الثلج مكتوبة على كلّ بيت بحروف صغيرة زرقاء وحمراء. روح هائمة كتبت على حائط مظلم في شارع فالكنشتاين بحروف بيضاء كبيرة: Lost Soul، وفي شارع رايشنبرجر على الجدار الملاصق لأرض تُجرى عليها أعمال حفر كتبت: Burning Soul. على الساتر الخشبي المقام في محطّة كوتبوسرتور لفصل أعمال الترميمات عن الجمهور كتب أحدهم بعربية جميلة: يا حسين. خارج دائرة الضوء الأصفر الوهّاج الذي تشعّه لافتة بنك برلين، وبمسافة كافية لاستقبال ضوء مصباح الشارع الشاحب، وقفت حروف كبيرة تقول: الحرّية من أجل فلسطين. فاض كيل أحدهم وقال لأحد أعمدة سكّة حديد شارع سكاليتزر المعلّقة: نريد كلّ شيء. في حين صرخ آخر على تقاطع شارعَي موسكو ومانتويفل كاتبًا: i won't die in silence.

جسر أوبرباوم ذو الأبراج القروسطية الحمراء هو آخر جسر حيّ في المدينة. ما يليه من جسور لا تسير فوقها سوى السيّارات. أمّا جسر أوبرباوم فلا تهدأ حركة العابرين خلال بواكيه العتيقة. كلّ الاحتمالات موجودة فوق هذا الجسر، من الممكن أن يكون جسرًا مرعبًا يكمن وراء أعمدته الخطر، فيخرج أحدهم من الظلام بمدية يثبت بها العابر القادم. ومن الممكن أن يكون جسرًا رومانسيًا ينحني على نفسه انحناءة خفيفة من وسطه ليتيح فسحة تطلّ على النهر يقف في كنفها عاشقان متكاتفان. يتطلّعان إلى الدخان الأبيض الجميل الذي يخرج من فوهة محطّة تدفئة المدينة. قديمًا كان الجسر يفصل

بين شطرَي المدينة الشرقيِ والغربي، واليوم يفصل بين جزئيها المرئي وغير المرئي. فخلف ظهر العاشقين تسطع برلين كأفق من ضوء، مبهرة وواعدة. تخترقها خطوط القطارات الَتي تجلب إليها كلّ يوم آلاف العابرين، وتُبعد معها مثلهم. أمّا الناحية الأخرى الّتي تنبسط أمام ناظرَي العاشقَين فيلفّها ظلام رومانسي، أراض خالية إلاّ من بعض أكوام الموادّ الخام، مداخن مصانع، بيوت قديمة يسكنها متقاعدون. هناك تغيب سطوة المدينة التي تتباهى بها، تنحسر أضواؤها الكاذبة، وتهبّ الريح في شوارعها الفسيحة الصامتة.

انقضّ الفكّان المعدنيان على الواجهة. يطبقان على حواف النوافذ ثمّ يقضمان الجدار حتّى ينهار جزء منه محدثًا جلبة عارمة، فتنكشف عورة الغرفة من وراء أسنّة قضبان حديد التسليح البارزة. تظهر طيّات الألوان الداخلية لحوائط الغرف، وتنكشف لعيون المارّة طبقات التجاعيد على سطحها، والآثار الّتي خطّتها فيها سنوات من حياة سكّانها. يستمرّ الفكّان المعدنيان في نهش لحم البناية، والتوغّل في أنسجتها، غرفة وراء غرفة، إذا استعصى أمامهما حائط نقرا ثقبًا فيه ونفذا من خلاله، وإذا استبسل عمود في مكانه نطحاه بغضب على رأسه حتّى ينهار. يتساقط ركام الأرضيات وتتصاعد الأتربة منها، ويقف عامل يصوّب خرطوم مائه على موضع نهش الفكّين، ليخفّف من وقع الحديد على الحديد. حتّى يجهزا على البناية بأكملها.

منذ التئام شطرَي المدينة والبنايات القديمة تتساقط واحدة وراء الأخرى. يأتي البلدوزر ذو المنقار المعدني من الشطر المنتصر، ويُعمل فكّيه في بنايات الشطر المستسلم القديمة، فيسوّي بها الأرض في بضعة أيّام، تبيت

الليل خلالها شائهة مبتورة حتّى تلفظ أنفاسها الأخيرة. والناس يلتفّون حول البنايات الجديدة التي قامت على الأنقاض، ينظرون عجيب المعمار، أمّا سكّان الحيّ فيقولون سلامًا، وينتظرون أمرًا كان مفعولاً.

يهبط الليل، فتكتنف الظلمة الشارع، كأنّها غلالة رقيقة تحفظ هشاشته. الضوء الأصفر الضعيف المنبعث من عمود الإنارة في ساحة الشركة يتوّج حميمية السيّارات النائمة بهالة خافتة. تلك هي سيّارات النهار النشطة، ترسلها الشركة كلّ يوم إلى المدينة، محمّلةً بالمندوبين والأوراق والبضائع. تعود بعد أن أرهقتها طرقات المدينة الّتي طوتها. تترك كلّ شيء في الخارج، المدينة وشوارعها، أصواتها وأناسها، رغباتها وأشواقها. وتدلف إلى هذه الساحة الصغيرة الصامتة في الشارع المظلم، لتنعم بدفء الرحم الصغير الّذي انطوت عليه المدينة.

حتّى يتنفس الصبح، فتنقشع الغلالة بفعل أشعّة النور المنهالة من الشمس، ويتمزّق الرحم. وتفرد كلّ سيّارة طريقها على أمل جديد بالانعتاق.

لا تأتي موسيقى من المقهى التركي إلا نادرًا، وفي لحظات خاصّة يروق فيها مزاج النادل النحيل. فالأغلب أن تصدح كاسات الشاي بصوت تقليب الملاعق المعدنية فيها، أو يطرقع الزهر في جنبات الطاولة الخشبية. روّاده من مختلف الأعمار، يفضّل الشيوخ الجلوس في الداخل، في حين يبقى الرجال والشباب في الهوّاء الطلق. يملؤون الشارع بأصواتهم وهم يتعاركون أو يتشاكون، يصرخ أحدهم في آخر يتدلّى من نافذة في الطابق الثالث، أو ينفجر

ثالث بضحكة ماجنة عندما يرى صديقًا له قادمًا في سيّارة تحيط بها سحابة من الموسيقى العالية الصوت.

بتقدّم الليل يهدأ المقهى، وينشط البار الجامايكي الصغير الواقع في مواجهته. تتسلّل عبر جدرانه موسيقى البلوز والسول. جمهوره يدورون في عقدهم الرابع، محبّو الهواء النقي منهم يقفون خارجه، يد تحمل زجاجة بيرة ويد تمسك بسيجارة، تتصاعد الألمانية من المتكلّمين. تيّار متماثل لنقاش أو جدل لا يعلو ولا يهبط، تقطعه على فترات متباعدة ضحكة، أو صرخة ثملة.

في العصاري وعندما يكون البار غارقًا في نوم عميق تتجمّع النساء المحجّبات جوار بابه المغلق، ويجلسن على البسطة القريبة. صبيّات من قرى بعيدة، متزوّجات حديثًا من رجال حاصلين على فيزات عمل. يروين حكايات يومهنّ لبعضهنّ البعض، يثرثرن ويقزقزن اللب، يصرخن في أطفالهنّ، وأطفالهنّ يصرخون فيهنّ.

يلوّح لاعبو الورق والدومينو من وراء زجاج النافذة. كلّ طاولة يجلس عليها أربعة لاعبين، يتحلّق حولهم بعض الرجال، منهم من يقدّم المشورة ومنهم من يتابع صامتًا. الرجال يشربون الشاي، يدخّنون ويثرثرون. المارّة في الشارع يعرفون أنّهم لا يستطيعون الدخول، فيسترقون بعض النظرات الخاطفة. وفي اللحظات الّتي تستغرقها هذه النظرات تتكوّن حدود للمدينة، تطير عبرها سهام ونبال، ما يقع خلف النافذة الزجاجية لا يتبع المدينة، أرض خارجية يسكنها أناس آخرون، يتحدّثون لغة أخرى، وتربطهم بالمدينة معاهدة سلام غير مكتوبة.

حُسم الأمر بعد تجديد المنزل الّذي يقع فيه المقهى. فبعد الواجهة الرمادية جاءت أخرى برتقالية. والنوافذ القديمة ذات الأفاريز المتآكلة حلّت محلّها أخرى جديدة لامعة. أمّا ما يخصّ المقهى فأُلصقت طبقة نصف شفافة على لوح الزجاج من الداخل. وأُرخيت ستارة وردية. فتباعد المقهى أكثر فأكثر ولم يبقَ من روّاده سوى صورة ناعسة للفيف من الأشباح. وعلى زجاج النافذة الخارجي عُلّقت لافتة ورقية دوِّنت عليها معاهدة السلام أخيرًا بلغتَي الطرفين: "ممنوع الدخول لغير الأعضاء".

هناك لحظات في فترة ما بعد الظهيرة يسود فيها صمت حذر. لا يقطعه جرس تليفون. ولا صوت مفصلات باب أو شبّاك، لا وقع أقدام على السلّم، لا صدى همهمات. لا صوت سريان مياه في المواسير، لا صوت حركة خرقاء يقوم بها أحدهم في الفناء، فقط صوت المدينة القادم من بعيد: عميق كأنّه صوت البحر. العجز عن تحويل هذا الصمت إلى سكينة يورث شعورًا مربكًا بفوات ميعاد لا يمكن تداركه. حتّى يسعل أحدهم وينفجر آخر في ضحك هيستيري فيقوم المرء ليشغل نفسه بشيء ما.

عند الخامسة، ومع بدايات وصول العائدين من أشغالهم، ومع الاختفاء التدريجي لهدوء اليوم، يؤكّد الشّعبان اللذان يتقاسمان الشارع على خصوصيّتهما. الأوّل تتجمّع نساؤه المحجّبات على مصاطب البيوت بعد عمل اليوم، يتطلّعن إلى أطفالهنّ اللاهين حولهنّ، يثرثرن ويقزقزن اللب، في حين يعرّج الرجال إلى المقاهي. فتمتدّ موجة من صياح الأطفال وحديث النساء وطرقعة قواشيط الدومينو. أمّا الثاني فيسارع رجاله ونساؤه إلى موضع في

الحديقة تحت شمس الصيف، يمرّون بكلابهم الّتي يعلو عواؤها وهي تتعارك مع بعضها، حتّى يصلوا إلى الحديقة فيختبرون درجة الحرارة، ويشربون نخب الضوء والدفء.

عندما يتكشّف الشارع عن ابن بلدك آتيًا من الناحية المقابلة، تنجذب عيونكما في نظرة جانبية خاطفة وتبقى للحظة معلّقة. بعد الفضول الأوّلي يأتي الارتباك، هل ستُقرؤهُ السلام؟ هل سيردّ السلام؟ هل سينزعج؟ بعدها تتأكّد القرابة، فتأتي "لقد كشفتك... ماذا تفعل عندك؟"، ثمّ "أنت أمامي عارٍ ككتاب مفتوح، تستطيع أن تضحك على الآخرين وتتصرّف كأنّك واحدٌ منهم، أمّا أنا فأعرف من أين أتيتَ، وعلى أيّ خِلقة كنت". وقبل أن تتمكّن كراهية الذات من إفساد الأمر، يتسرّب فجأة خيط من التسامح والقبول، ورغبة في الوقوف والحديث، كرفيقَي درب تشتّتت بهما الطرقات، مسّتهما الأفكار نفسها وتقلّبت عليهما الأحوال نفسها. أخيرًا يأتي التجاهل المريح، اتّفاق جنتلمان: "أنا لم أرك، وأنت لم ترني، ويكفينا ما نحن فيه".

ومع عبور قدمَيكما المتعاكستَين لخطّ المواجهة، يستردّ كلاكما عينَيه، ويصوّبهما أمامه نحو لا شيء.

صالة الترانزيت تتنفّس. في الشهيق يأتي المهاجرون من كلّ فجّ عميق ملبّين دعوة إحدى عواصم أوروبا الشرقية. رجال يحملون أطفالهم ويمازحون زوجاتهم وهم يمسكون جوازات سفرهم في أيديهم مرشوقة فيها تذاكرهم الاقتصادية، فتفرزهم الصالة حسب أوطانهم، ليصبحوا كتلاً كبيرة متجانسة، تفيض كلّ كتلة عن حجم المعبر الذي تقف أمامه. في الزفير

تستقبل الصالة المسافرين أنفسهم وهم عائدون من أوطانهم. يجلسون آخر الليل متعبين بعيون محمرّة وعضلات متيبسة. ثمَ تفرّقهم تعليمات الصالة شيئًا فشيئًا كمن يفرّق خصلات الشعر. كلّ خصلة صغيرة تقف وحيدة مرتبكة أمام معبر سيحملها بعيدًا.

قطع النادل الممرّ المؤدّي إلى الباب الخارجي ووقف على عتبته غارقًا في ضوء النهار. في حين انتحى الساقي الطاولة البعيدة المقابلة للعجوز، وأخذ يدخّن وهو ينظر إلى النافذة حينًا وإلى مطفأة السجائر حينًا آخر. أمّا العجوز الواقف خلف ثلاجة السلطات فانهمك في ترتيب أواني الخضر والمخلّلات، وأدار عمود الشاورمة على محوره نصف دورة فطشت حبيبات الدهن، ثمّ شمل المحلّ بنظرته ووقف مطرقًا.

عاد النادل متّجهًا إلى إحدى الطاولات وعبث بترتيب المنديلَين ومطفأة السجائر كأنّه اكتشف عيبًا في وضعها، ثمّ أعادها إلى ما كانت عليه في حركة يائسة. سقط رأس الساقي في غفوة لحظية. فانتبه ورفعه، ثمّ تركه في المرّة الثانية لحظات قليلة في خدر النعاس المسروق. نظر النادل إلى العجوز، ثمَ عاد فذرع الممرّ بخطوات آلية ليستطلع الأمور. زفر العجوز وهو يجفّف عَرقه بمنديله وقال قاطعًا السكون... ايبه.

الكبائن الصغيرة الّتي تعجّ بطالبي الوصال خاويةٌ الآن. تهتزّ أبوابها البلاستيكية بفعل الريح الخفيفة. وخطوط التليفونات الّتي تنضح بأشواق المهاجرين وآلامهم ساكنةٌ الآن. لا يسري فيها نبض. في هذا الصباح الكسول تجلس الموظّفة الشابّة وحدها وراء خزنتها. تحيطها الكبائن كالخيالات.

وتطلّع بضجر إلى النافذة. كأنّ هذه الكبائن لا تشتعل بالضجيج والصياح عندما يحلّ الليل، وكأنّ أجهزة التليفونات القابعة فيها لا تتخاطفها الأيدي بحرارة لسماع خبر أو لإلقاء سلام. تبخّرت المآسي والأفراح المبثوثة كلّ ليلة. ولفّت المكان وحشة ثقيلة.

في الخارج لافتة كبيرة معلّق عليها أعلام البلدان وأسماؤها، وبجوار كلّ بلد سعر الدقيقة التليفونية. وبخط كبير وواضح كُتبت جملة "اتّصل بأحبابك"، بالعربية والتركية والفارسية.

من حين لآخر يتحرّك أحدنا ويتّجه نحو النافذة المطلّة على الشارع، ينظر إلى نوافذ الجيران في البناية المقابلة، إلى وميض أضواء السيّارات المارّة، إلى انعكاس صورته الشاحب في زجاج النافذة، ثمّ يعود أدراجه في صمت. لم يعد هناك ما نقوله. وبقينا عالقين في بحر الارتباك، تدفعنا الرغبة الحارّة في مغادرة الحُجرة، ويصدّنا المطر الطويل المنهمر في الخارج.

تنبع الطمأنينة الّتي تمدّنا بها اللغة الأمّ من الوضوح الشديد الّذي تسبغه على الحياة اليومية الواقعة في مجالها. أمّا الحياة في لغة جديدة فتبدو وقد مسّتها عصا سحرية، لا شيء واضح ولا شيء مفهوم. تنقلب المعاني وتتحقّق المعجزات، كأليس السائرة في بلاد العجائب، لا تفهم ما يفعله أهلها، ولا تعرف عن ماذا يتحدّثون. تبدأ الحكاية بمتحدّث يروي كيف سقط مفتاحه اليوم في الحديقة. يعود جزعًا وينقّب عن المفتاح، يذرع الحديقة ثمّ الشارع ثمّ المدينة بأكملها، لكنّه لا يجد شيئًا. تتوالى أحداث غامضة، تتفرّع وتتشعّب، يتوارى المفتاح وتظهر كلمات أخرى غريبة كأنّها

طلاسم مستغلقة. يجهلها السامع لكنّه يشعر بأن لها تأثيرًا حاسمًا على مجريات الأمور. وها هي الحكاية تنتهي فجأة بالعثور على المفتاح مُلقًى على شاطئ في مدينة أخرى بعيدة. بعد استنفاد طاقة الاستفهام وطلب التوضيح. يحاول السامع ملء الفراغات بحلول سحرية: ربّما كانت الحديقة أصلاً في المدينة الأخرى. أو لعلّ الشاطئ هو كناية عن الوصول إلى نهاية رحلة البحث وليس الوصول إلى مكان بعينه. وعندما تعييه الحيلة يسترخي صامتًا مراعاةً لآداب الحديث. إلاّ أنّه يكون قد انتقل إلى المدينة الأخرى البعيدة.

كنّا نسير في الطريق الواصل بين عملنا ومحطّة المترو. ثلاثة من الأشباح في طريقهم إلى مدينة لا ينتظرهم فيها أحد. نستمع لحديث ثالثنا عن ضياعه بين اللغتين. فكلّ ما يكتبه يكتشف أنّه ترجمة لجمل تنتمي للّغة الثانية. وكلّما أمعن في تنقية ما كتبه بلغته الأولى كلّما ازدادت غرابة ما يكتب. حتّى فسد عليه الأمر. مساحة رصيف المشاة لا تتّسع سوى لثلاثة. تمتلئ بهم المسافة الصغيرة بين نهر الشارع وحدّ الحديقة المجاورة. وقبل أن نصل إلى المحطّة انشقّ الطريق عن ركب من الناس المحترمين آتين في عكس اتّجاهنا. عندما اقتربوا سمعنا اللغة الثانية الّتي كدنا نتقنها. فهدأت لغتنا الأولى. وبتواطؤ لم نكن نعرف بوجوده انزاح الثالث إلى نهر الشارع وارتقى الثاني رصيف الحديقة المنخفض ليفسح الطريق وأكمل الأوّل طريقه تائهًا وسط الركب العارم. على مدخل المحطّة التأم جمعنا مرّة أخرى. وانحدرنا داخلها صامتين.

العيش في لغة أجنبية يشبه مشاهدة التلفزيون. تجلس وتتابع وأنت تعرف أنّ ما يدور أمامك هو وهم شبيه بالواقع، تعرف أنّ ما تشاهده هو لحظة منفصلة تقع على هامش لحظتك الحالية. أطراف الحديث الّتي تتجاذبها تشبه جملاً تجري على لسان ممثّل يقوم بدور صغير في مشهد مملّ. حتّى أكثر المشاعر صدقًا تخرج وكأنّها كُتبت خصّيصًا لمسلسل تلفزيوني يُعرض في وقت الظهيرة. مسلسل تقوم فيه بمهمّة عجيبة وهي تقمّص ذاتك. أمّا الجزء الّذي يعيش في اللغة الأمّ فيتوارى قليلاً إلى الخلفية. ويتأمّل في رأي أندي وارهول عن التلفزيون. حيث قال ذات مرّة إنّه ليس صحيحًا ما يذهب إليه البعض من أنّ الأفلام الّتي يعرضها التلفزيون تقدّم لنا صورة مزيّفة عن الحياة. وإنّما ما يحدث لنا في حياتنا الحقيقية هو الزيف بعينه. فالأفلام والمسلسلات التي تُعرض في التلفزيون تكثّف المشاعر الّتي تنتابنا أثناء مشاهدتها وتجعلها حقيقية، في حين لا يكاد المرء يشعر بشيء عندما يمرّ بأحداث حقيقية في حياته. إنّه يتابعها كأنّه يشاهدها على شاشة التلفزيون.

ينفتح باب، تخرج سحابة من الموسيقى، تخطو فتاتان تميلان إلى البدانة عبر باب البار، تنظران حولهما في دهشة، يبتلعهما الضجيج، ينغلق الباب، تمرّ سيّارة. تملأ سيّارات الفولكس فاجن ساحة الانتظار، صفًّا وراء صفّ، تضيء لافتة أوتو ميلز البيضاء في قلب الساحة، يلتفّ نور أصفر على شكل مخروط حول عمود قصير في طرف الساحة، تنام درّاجة وحيدة جوار العمود. تُسرع سيّارة في منحنى، يفزع سائق درّاجة تعبر، تضيق المسافة، يلمع زوجان من الأعين، تبطئ السيّارة، تمرق الدرّاجة من

المنحنى الخطر. تتوقّف درّاجة نارية، يجلس إلى مقودها شابّ يلبس خوذة. وراءه شابّة قصيرة شعرها ذهبي، يتحدّث بصوت عال حتّى تسمعه، تضحك هي وتنظر إلى السماء من فرط السعادة فتلمع نجمةً، تُضيء إشارة المرور فيطغى صوت المحرّك على لغتهما التركية. ينبعث صوت يشبه صوت فيروز، يصدر عن جهاز الموبايل الخاصّ بأحد الشابّين الواقفَين في الظلام، أحدهما يتّكئ على مدخل مَحلّ إيزابيل للقهوة والآيس كريم المغلق، والآخر يسند قدمه على عتبته، يُمسكان فجأة عن الكلام وينظران في ترقّب إلى القادم، وعندما يطمئنّان يكملان هديرهما بالفلسطينية.

السيّد فهمي يذهب إلى العمل

نقل السيّد فهمي نظره إلى النافذة، وتابع الأوراق القليلة الّتي لا تزال ترتعش على أغصان الشجرة المواجهة. تمرُّ رياح الخريف الهوجاء فتهزُّ الأوراق هزًّا عنيفًا وتُميل الأغصان الّتي تحملها بقسوة حتّى تنفصل إحدى الوريقات فتطير بعيدًا. ثمّ أرجع نظره إلى الرسالة وأعاد قراءتها. كان صديقه يكتب له عن مشكلته مع تكدّس بيته بالأشياء، فقد أصبح لا يجد مكانًا يضع فيه كتبه الجديدة بعد أن ناءت المكتبة بحملها، وضاقت الكراتين أسفل السرير بمحتوياتها. وروى له في رسالته أنّه ضاق ذرعًا بكلّ هذه الأشياء الّتي كان يجمعها وأصبحت مكوّمة الآن ويعلوها الغبار كأنّها شواهد السنين، حتّى تلك الّتي كان يحرص سابقًا على اقتنائها. فمثلاً أصبحت مشاعره محايدة فجأة تجاه زجاجة الشمبانيا الّتي يستخدمها الآن كمزهرية، والّتي كانت سابقًا أوّل زجاجة شمبانيا يحتسيها مع حبيبته الّتي أصبحت زوجته فيما بعد. غير أنّ أكثر ما يثير انزعاج الصديق هو امتلاء غرف البيت بالذكريات، فهو يشعر أنّه مخنوق تحت وطأتها. كلّ ركن في البيت محمّل بذكرى من سنوات صباه أو بحلم من أحلام شبابه، أو

بطيف من أطياف والدَيه اللذين رحلا منذ أعوام. وضع السيّد فهمي الرسالة جانبًا على الطاولة وغادر غرفته.

في الطريق إلى العمل لاحظ السيّد فهمي كيف استطاع الخريف التسلّل إلى غرفته، فقد لمح وهو يغلق الباب ورقة شجر جافّة راقدة على أرضية الغرفة. كان لونها أكثر دكنة من الأوراق المكوّمة الّتي يراها الآن في شوارع المدينة، والّتي تميل إلى اللون الذهبي والأحمر. ثارت الريح فأطارت الأوراق الّتي يسير فوقها، لكنّ الورقة الراقدة على أرضية غرفته ظلت عالقة في ذهنه، تثير فيه شعورًا بالنفور تجاهها كأنّها جيفة. وشيئًا فشيئًا امتدّ هذا النفور ليشمل الغرفة بأكملها، فرشته الرخيصة، طاولة المكتب المتهالكة، زهوره الذابلة الموضوعة فوقها، مرآة الحمّام الباهتة. مع كلّ خطوة يخطوها تزداد كثافة البؤس الّذي أصبح مخيّمًا على كلّ شيء في حياته. حتّى وصل إلى البار المحدّد، فوجده غارقًا في عتمة تلفّها أدخنة السجائر. هزّ كتفيه سريعًا وبخطوة واحدة قطع المسافة بين عالَمي الحقيقة والخيال، ودلف إلى العتمة مخلّفًا وراءه نور الصباح. حيّاه المُساعد وطلب منه الجلوس فورًا إلى البار بجوار إستير وقال له: سنبدأ من حيث انتهينا أمس. وما إن أخذ مكانه بجوارها حتّى غمره إحساس لحظي بالسعادة، وطارت الورقة بعيدًا. كان هناك بضعة أفراد متفرّقين يتحرّكون كيفما اتّفق، ورجلان يقفان بجوار مصباح الإضاءة الباهر، وبالقرب من باب البار انحنت امرأة فوق آلة التصوير. قال المخرج الذي وقف في ظلّ المصباح الباهر: سكوت، سنبدأ.

طافت عدسة الكاميرا بالمكان، ومسحت ببطء أرجاءه. ثمّ ركّزت على وجه البطل والبطلة الجالسَين على طاولة يتبادلان الحوار، في حين جلس السيّد فهمي وإستير في الخلفية. قال البطل للبطلة إنّه رفض العرض المقدَّم له وقرّر البقاء في المدينة. إستير سألت السيّد فهمي عن الحوار الذي يدور على طاولة البطل والبطلة، ثمّ قالت إنّها تشعر بالسعادة لأنّها لا تفهم شيئًا من كلام الناس حولها. وإنّها تعوّدت أن تسير في شوارع المدينة داخل فقاعة لا تكاد تصلها كلمات الآخرين، لذلك فإنّها تُصاب بالدهشة عندما تعود إلى مدينتها الأمّ من كثرة الكلام الّذي تفهمه. ضحك السيّد فهمي وقال لها إنّه على عكسها يحبّ سماع كلام الآخرين عندما يعود إلى مدينته الأمّ وإنّه يشعر ساعتها بارتباط وثيق بمَا حوله، ولوّح بيدَيه أثناء حديثه أكثر من مرّة تلبيةً لأوامر المساعد بالتظاهر بالنقاش بصرف النظر عن محتواه لإنّ صوتهما لن يسجَّل على أيّ حال. إستير قالت: اللغة لا تصلح وطنًا، فهي تفرّق لا تربط، أنت لا تعرف لغتي وأنا لا أعرف لغتك.

تحرّك بعض أفراد الخلفية وغيّروا مواقعهم استعدادًا للّقطة القادمة في الفيلم الّذي تسكن بطلته حيًّا للمهاجرين. لم يكن أحد منهم يعرف مصير قصّة الحبّ الّتي يرويها الفيلم، فعندما عُرض عليهم العمل لم يهتمّ أحد بشرح قصّة الفيلم لهم، فقط قال لهم المساعد إنّ على بعضهم الوقوف متناثرين في خلفية المشهد، في حين على البعض الآخر الجلوس على المقاعد المخصّصة لهم. أفراد الخلفية بدورهم فقدوا الاهتمام سريعًا بمصائر البطل والبطلة وباقي الشخصيات، وشغلوا وقتهم بالأحاديث والحكايات ومشروبات البار المجّانية كلّ ليلة. تأمّل السيّد فهمي وجه إستير وفكّر كم

أنّه يحبّ ممارسة الجنس معها، وكم يحبّ أن يلمح مشط قدمها الأيسر الّذي يحلو لها أن تسنده على الحائط الملاصق وهو يتقلّص وينبسط وفق موجات الإثارة. في كلّ مرّة كان يغرق داخلها حتّى يذوب لكنّه لا يصل إليها. في كلّ مرة تنفلت إلى لحظة أخرى، كأنّ روحها تسبق جسدها بخطوة، تظهر هذه اللحظة الأخرى من حين إلى آخر على شكل ارتباك مفاجئ في الإيقاع، أو تقلّص حادّ في الكاحل أو ابتسامة غير مبرّرة أو رجفة في الكتفين. قالت إستير إنّها ستغادر المدينة اليوم، ثمّ قال المخرج بصوت عالٍ: سكوت، سنبدأ.

ركّزت الكاميرا على وجه البطلة الّتي انهمكت في حديث ممزّق الأوصال عن استقرار علاقة حبّهما بعد أن كانت مبعثرة على مدار زيارات قصيرة، كلّ لقطة تكرّرها حتّى يرضى عنها المخرج، تلته الكاميرا بالتركيز على وجه البطل الّذي قدّمت جمله الأجزاء الناقصة من حديث البطلة. إستير قالت إنّها سئمت من تعامل الجميع معها كصورة. في كلّ مدينة تذهب إليها ترى الوجوه نفسها الّتي تبحث عن انعكاساتها في وجهها، وتقابل الأجساد نفسها الّتي تهوى تزيين صدرها بحلية غرائبية، فتبقى هي صورة غائمة تطفو على سطح المدينة. اغتمّ السيّد فهمي وهمّ أن يسأل إستير لماذا لم تخبره بذلك من قبل لكنّه تراجع. فقد كانت لقاءاتهما تجري على منطق آخر غير منطق العلاقات المستقرّة. منذ ثلاثة أشهر وهما يتقاربان ويتباعدان، يلتقيان عندما يجمعهما كادر ما في أحد أفلام المدينة أو مسلسلاتها، وينزويان عندما يغرق كلّ منهما في البحث عن طريق في متاهة المدينة. قال السيّد فهمي لإستير إنّها لا تكاد تصل مكانًا حتّى تغادره، لا عجب إذن أن لا يتبقّى منها

سوى صورة. ثمّ سألها وقد نسي التلويح بيده لماذا لا يبقيان هكذا في عالم الصور وقتًا أطول. طالما أنّها لن تجد سواه في كلّ مدينة تذهب إليها. بعد عدّة ساعات قال المخرج من وراء المصباح الباهر: هذا يكفي اليوم. شكرًا.

خرجا من البار. وما إن عاد السيّد فهمي إلى الشارع، حتّى انتابته مجدّدًا مشاعر النفور تجاه بيته فقرّر تأجيل الرجوع إليه قدر الإمكان. والتصق بإستير وهما يسيران وأصوات تهشّم الأوراق الجافّة تتصاعد من تحت أقدامهما. أخذا يسيران وهما صامتّان في شوارع المدينة. وصلا إلى الحديقة العامّة الّتي التقيا فيها لأوّل مرّة، ثمّ مرّا بالبار الّذي يذهبان إليه من حين لآخر، حتّى وصلا إلى الجسر الصغير الذي تعبر من تحته القطارات. مئات القطارات كلّ يوم تصل إلى المدينة وتغادرها. وقفا ينظران إلى أضواء عربات القطار وإلى انعكاساتها على القضبان.

كانت غرفة إستير فارغة تمامًا. ليس بها سوى أربعة حوائط ونافذتين. خطا السيّد فهمي إلى الداخل وهو مأخوذ بهذا الفراغ. أخذ يتطلّع حوله في المكان الّذي أصبح خاليًا من أيّ إشارة تدلّ على صاحبته. حتّى حقيبة سفرها أودعتها المطار في الليلة السابقة كما قالت له لكي تخفّف عبء ذهابها إليه اليوم. فراغ الغرفة المحايد انطوى على قسوة مربكة، لكنّ إستير تطلّعت عبر النافذة ثمّ عادت إلى الباب وأغلقته اتّقاءً للبرد، وتمتمت بشيء دون أن يبدو عليها التأثّر بانسلاخها عن المكان. كانت تتحرّك وكأنّها طيف من زمن مضى، طيف لم يعد له حاضر في هذا المكان. تطلّع السيّد فهمي حوله، لم يكن هناك سوى جسدَيهما في مواجهة كلّ هذا الفراغ.

الأرواح الميتة

فكّرت بي لوهلة ثمّ قالت:

– كلّنا وحيدون في مواجهة مصيرنا الفردي، أليس كذلك؟

– ...

– أعني أن لا أحد يستطيع حقًّا مساعدة الآخر؟

– لا أظنّ.

صمتنا قليلاً ثمّ قال جرجس:

– أحيانا يحدث العكس. نلجون أخبرتني أنّ أحد أسباب تسريحها حسبما قيل لها هو أنّ زملاءها في قسم الإعلانات اشتكوا منها لأنّها تفتقر إلى روح الجماعة.

***

تابع جرجس عرض الصور الجديدة الّتي التقطها من جبهة الثلاجة على بي، وتذكّرا بحسرة الأيّام الّتي كان المطبخ فيها عامرًا بالمياه المعدنية، والعصائر المرطّبة، والشاي والقهوة. آنذاك اعتاد الموظّفون أن يلتقوا عند تجهيز القهوة، فيتبادلوا الأحاديث، ويقدّم واحدهم للآخر بعض ما جاء به من بيته. حتّى جاءت إجراءات الادّخار وتقليص النفقات الّتي اتّخذتها

الشركة لمواجهة الأزمة الاقتصادية الحالية، فبقيت زجاجات المياه الفارغة في مكانها حتّى علاها الغبار، ثمّ اختفت ماكينة القهوة بحجّة إصلاحها ولم تعُد، وشحَّ السكّر، وانعدم الشاي. فانطفأت شعلة المطبخ، وقلّ المتردّدون عليه.

وقتها اجتمع الموظّفون ليتشاوروا في أمرهم، وقال قائلهم لا حلّ لنا سوى بتكاتفنا معًا، ثمّ اقترح أحدهم عُرِف برجاحة الرأي أن يشتركوا في شراء ماكينة قهوة بديلة. لاقى الاقتراح موافقة الجميع، فجُمعت النقود وتمّ الشراء. تميّزت الماكينة الجديدة بالخصوصية. فهي لا تعمل بالبُنّ السايب، ولكن بعبوات مقنّنة تشبه الشاي الفتلة، فيستطيع كلّ موظّف أن ينظّم استهلاكه الشخصي بشراء علبته الخاصّة دون أن يكون مضطرًّا للاشتراك مع الآخرين وتحمّل تكلفة استهلاكهم.

طريقة تشغيل الماكينة تلك هي البذرة الحقيقية لأزمة بدأت على استحياء ثمّ نمت وكبرت حتّى أصبحت معركة شرسة اتّخذت من ثلاجة المطبخ ميدانًا لها، ألا وهي أزمة اللبن الّذي يحبّ الجميع مزج القهوة به. فظهرت الشكاوى من النفاد السريع للّبن وعدم التزام الآخرين بشرائه دوريًّا، ممّا يعني الظلم في توزيع التكاليف، ووُجِّهت الاتّهامات بالتنصّل من الشراء. ثمّ بدأت الأزمة تأخذ بعدًا جديدًا مع حرب الملصقات. فلقد فاض الكيل ببعض الموظّفين وقرّروا شراء علب لبن خاصّة بهم وحدهم، ووضعوها في الثلاجة وألصقوا عليها ملصقات صغيرة تحذِّر من مدّ اليد عليها. وكردّ فعل استُهدفت تلك الملصقات ولُطِّخت بالسباب والشتائم والاتّهام بالخيانة وانعدام حسّ التضامن.

* * *

انتظم صوت المصباح الرفيع الَذي يتحرَك عرضيًا حتَى آخر اللوح الزجاجي. ما إن يصل ضوء المصباح الأخضر المتوهَج إلى الحافَة حتَى يرتدّ ليبدأ الرحلة من جديد. امتدّت يدها لتضع صورة، ثمّ ضغطت على الزرّ، ليعود الصوت الخافت المنتظم. مع كلّ صورة جديدة ضغطة من اصبعها ومتر إضافي تقطعه في الطريق إلى الأسفل، ببطء تنسحب هابطةً إلى الظلمة الحالكة، تخترقها طبقة طبقة لعلّها تنفذ إلى القلب الّذي تخرج منه جميع الأشياء. تلألأت أسراب قناديل البحر الشفَافة فتبعتها، وخرجت من بين الشعب مخلوقات على شكل شعيرات ضوئية لم تكن تعرف بوجودها. رأت على حصى القاع حطام قارب متوسّط الحجم، وانتابها يقين بأنّ القارب لم يكن خاليًا وأنّ هناك من فقد حياته في عرض البحر، فاقتربت لتبحث عن هيكله العظمي، لتمنحه لمسة حانية أخيرة. حاولت رفع عارضة خشبية من حطام القارب لترى ما تحتها، حينها تناهى إلى أذنها صوت غير منتظم، يعلو ويهبط دون أن تستطيع تمييز كلماته، يعلو ويهبط في دورة متكرّرة، يعلو ويهبط. يعلو ويهبط...

– بي، هل تسمعين؟ بَي، هل تسمعين؟

انتبهت بي ونظرت إلى موظَفة قسم الإعلانات الّتي دخلت للتوّ، وقالت بعد وهلة:

– عن أيّ شيء تتحدّثين؟

– عن الحفل الّذي تقيمه الشركة على شرف تجّار السيّارات.

– ماذا عنه؟

– أردت أن أخبرك أنّنا قرّرنا جميعًا عدم الذهاب احتجاجًا على تبذير الشركة في الوقت الّذي تطالبنا فيه بالتقشّف.

كانت بي لا تزال تنظر بعينين مندهشتين إلى وجه الموظفة الجاد، فتابعت الأخيرة قائلة:

- أنت غير ملزمة بشيء، لكنّي رأيت أن أخبرك فقط.

وغادرت المكتب.

* * *

"لم أكد أتنفس الصعداء بعد مرور الموجة الأولى بسلام حتى ضربت الثانية بأسرع مما توقعت. بعد أربع شهور فقط من الأولى فصلوا ثلاثين موظفًا إضافيًا. أي عشرة في المائة من العمالة في ضربة واحدة. من سيشغّل الآن امرأة تخطّت الأربعين، وتعول رجلا وطفلة؟ الأمر في منتهى البساطة، تجد عملاً صغيرًا طالما كنت شابًا، لكنّك إذا لم تصعد السلّم الوظيفي مع الصاعدين سيتمّ استبعادك سريعًا، الدفعة اللاحقة تدخل ملعب الوظائف الصغيرة وعندها كلّ المميّزات، طاقة وشباب وحيوية. تستطيع أن تقنّن احتياجاتك بسهولة في مقتبل العمر لتحافظ على استقلالك، أليس كذلك؟ ماذا تحتاج للبقاء على قيد الحياة؟ بعض الأكل والشرب والقراءة، لا شئ أكثر. يكفيك أن تلقي ببعض ساعات الأسبوع في مكتب أو مصنع أو مطعم، وباقي الوقت تجلس في ركن وتكتب الجمل التي تخطر على بالك. لكن بعد الأربعين ينتهي النعيم، فتحرمك الرأسمالية من فتاتها الذي كانت تلقيه إليك. لتقف مرّةً أخرى أمام الأسئلة القديمة، لا لتندم على اختياراتك، بل على العكس لتتأكد من صدق أسئلتك."

* * *

الطابق الرابع مخصص لسلطة العقل، هناك يقع قسم البرمجيات، ويقطنه مهندسون يكتبون برامج لتنظيم العمل. والطابق الثالث تسكنه ملكة

الإبداع، حيث يقوم الفنّانون بتصميم المطبوعات. من الطابق الثاني تنطلق الدورة الدموية حيث ينبض مكتب شؤون العاملين ويضخّ الدم في شرايين الشركة. وفي الطابق الأوّل يعمل الجهاز الهضمي ممثّلاً بقسم الإعلانات الّذي يدرّ الأرباح مغذّيًا باقي الأجزاء. أمّا موظّفو الاستقبال في الطابق الأرضي فهم الحواسّ الّتي تُدخل المعلومات. في حين يقوم موظّفو الأمن الّذين يشاركونهم الطابق بدور جهاز المناعة إذ يسهرون على حماية الكيان بأكمله.

جال رئيس مجلس الإدارة بنظراته بين الحاضرين في الاجتماع فخورًا بمجازه الّذي قصد به بيان الترابط العضوي لشركته. تطلّع جرجس إلى بي الجالسة جواره، لكنّه وجدها قد انسحبت ولم تترك سوى عينَين شفّافتَين، فأخذ يتخيّل أيّ سرب من الأسماك الصغيرة ستراه يسري داخل البناء المطمور الّذي شيّده رئيس مجلس الإدارة للتوّ، وأيّ وحش يقبع في انتظارها في الأعماق. ثمّ أخذ جرجس يتلفّت حوله متمنّيًا لو كان في استطاعته التقاط صورة لطاولة الاجتماع من أعلى حيث تنعقد يدا رئيس مجلس الإدارة في مقدّمة الطاولة في حين تتناثر على الجانبين أيادٍ تمسك بأقلام وأوراق مبعثرة. فكّر أنّ صورة كهذه لو وُضعت بجانب الحلم الّذي انغمست بي فيه حاليًّا فسيكون الناتج صفحة مميَّزة في الكتاب، تكشف عن لحظة توافق نادرة بين السطح والأعماق.

استمرّ الاجتماع الهادف إلى طمأنة العاملين على أماكن عملهم ساعتَين، تحدّث فيه رئيس مجلس الإدارة عن الاضطّراب في أسعار الوقود، والّذي أثّر بشكل كبير على سوق السيّارات ومن ثمّ انعكس سلبًا على أرباح مجلّة السيّارات، كما تطرّق إلى الركود الّذي أصاب سوق العقارات في الفترة الأخيرة وأدّى إلى تقليل حجم مجلّة العقارات. ثمّ عرض العديد من الرسوم البيانية،

والجداول التوضيحية، الّتي بيّنت الوضع المُزري للشركة. وانتهى الاجتماع بوعد منه ببذل قصارى الجهد، ومطالبته في الوقت نفسه العاملين بتقديم المزيد من التضحيات حتّى تتمكّن الشركة من الوصول إلى شاطئ الأمان.

***

التحق جرجس بقسم "الأون لاين" فور استحداثه بعد أن ثارت فقاعة الاقتصاد الجديد، والّتي تمثّلت في اكتشاف شبكة الإنترنت كوسيط جديد قادر على تحرير التجارة لتتخطّى الحدود المكانية. وقامت على أثرها شركات كثيرة غامضة لا يعرف عنها شيء سوى أنّها تعمل في مجال الإنترنت. وسرعان ما ظهر مصطلح جديد ابتهج له الجميع، وهو مصطلح الشبكة. اسم رنان يوحي بقوى سحرية، يليق بأن تعقد عليه الآمال في تغيير العالم.

في البداية جلس جرجس مع المبرمجين وكلّه أمل، حيث أُسندت إليه مهمّة اختبار البرامج الجديدة لمعرفة ما إذا كانت تحتوي على ثغرات. لكنّ عمله نُقل إلى قسم الصفّ والتنضيد الإلكتروني بعد أن توقّفت بعض المطبوعات عن الصدور لغلاء أسعار الورق والطباعة، وتمّ الاكتفاء بوجودها على الشبكة. ثمّ أوكلت الى جرجس مهمّة "تنظيف" الصفحات الإلكترونية من الأسطر الزائدة أو المكرَّرة. وأخيرًا انتهى به المطاف في غرفة صغيرة مع بي تقع في نهاية ممرّ الطابق الثالث، يقضي يومه في فرز بريد الشركة الإلكتروني ليخلّصه من نفايات العالم الجديد المتمثّلة في رسائل تزفّ بشرى الفوز بملايين الدولارات وأخرى تقدّم الفياجرا بأسعار زهيدة، وغيرها من الرسائل غير المرغوب فيها.

***

أخرج جرجس كاميرته، وصوّبها نحو النافذة وضغط على الزرّ. ثمّ أعادها إلى مكانها بجواره واعتدل أمام شاشة حاسبه الآلي. قام بإدخال دفعة جديدة من البريد وأجرى عليها برنامج الكشف عن النفايات، ثمّ تناول فنجان قهوته وغادر الغرفة. عندما عاد وجد بي الجالسة قبالته ما تزال مثبّتة أمام شاشتها، منفصلة كالعادة عن كلّ ما حولها. فجلس على كرسيه ورشف من كوبه متطلّعًا إلى انعكاس صورتها على النافذة، راقب الشعرات الثلاث أو الأربع الصغيرة البيضاء التي تظهر أحيانًا في خصلة الشعر المنسدلة على جانب جبينها، وراقب عينَيها العسليتَين المتسعتَين وتأكّد عندما رأى هدوءهما وشرودهما من أنّها منهمكة في أحد أحلام يقظتها. جلس جرجس في صمت وهو يشعر كالعادة بأنّ عليه أن يحمي بي من أيّ صدمة مفاجئة قد تصيبها، حيث كان مقتنعًا بأنّ وجودها عندما تحلم يصبح أكثر هشاشة، وأنّ أيّ صدمة ستُبقيها للأبد هناك. كانت وظيفتها تتلخّص في وضع صور الأشياء المعلن عنها على جهاز الماسح الضوئي ثمّ تخزين الصورة الإلكترونية بعد إجراء بعض الرتوش عليها. أمّا أحلام اليقظة التي كانت تراها أثناء عملها فتركّزت على مشاهد من الأعماق، ففي بعضها رأت المكتب وهو يغرق شيئًا فشيئًا حتّى يصل إلى القاع، وفي أخرى راقبت بسعادة تباطؤ حركة الرصاصات التي أطلقتها داخل الماء على هدف غامض، وفي ثالثة شعرت بلمسة حانية من يد غريبة في عمق الماء.

***

ما إن خطا جرجس داخل الغرفة وتأكّد من أنّ عينَي بي تتحرّكان بحيوية حتّى قال:

– بي، يجب أن أخبرك بشيء.

تطلّعت إليه مستفهمة. فأكمل:

-لقد كتب أحدهم على علبة لبن في الثلاجة open source.

-حقاً؟

أكمل جرجس:

- لكنّ شخصًا آخر لطّخ العلبة كاتبًا عليها "فليذهب المتحذلقون إلى الجحيم".

هزّت بي رأسها وهي تبتسم بمرارة، ثمّ أعادت نظرها إلى شاشتها.

ألقى جرجس نظرة سريعة على الرسائل الّتي صنّفها برنامجه كنفايات قبل أن يتخلّص منها، ثمّ أخذ يفحص الرسائل الّتي أجازها البرنامج حيث أنّ بعض الرسائل الماهرة تنجح في تخطّي الفلاتر الإلكترونية. استوقفته رسائل كانت أسماء مرسليها عادية لا تثير الشكّ لكنّه عندما فتحها وجدها تعلن عن طرق اقتصادية لإطالة القضيب أو تمنح قروضًا خيالية دون فوائد. مسحها بضغطة من أصبعه، ثمّ تطلّع إلى النافذة، وأسرع إلى الكاميرا وصوّبها إلى الخارج وضغط على الزرّ. فانتبهت بي ونظرت إلى النافذة وسألته:

- كيف حال صديقك العنكبوت؟

- لقد ظهر اليوم. رتق بعض الخيوط ثمّ انسحب.

- هل وقع صيد أخيرًا في شبكته المهترئة؟

- رأيت ذبابة عالقة في الشبكة قبل يومين. غريب أنّ مثل هذه الشبكة الضعيفة تستطيع الإيقاع بأيّ صيد. في البداية ظننت أنّها تعاني من سوء الحظّ بسبب الطقس المطر، لكنّي اكتشفت أنّها تظلّ مهترئة حتّى في الأوقات المشمسة.

- ربّما أصبح عجوزًا لا يقوى على نسج شبكة قوية؟

– لا أعتقد. أظنّ أنّه لا يرغب في العمل.

عادا إلى الانهماك خلف شاشتَيهما حتّى قالت بي فجأة وهي تضيّق عينَيها مبتسمة وتميل برأسها لكي يراها جرجس:

– جرجس، أظنّ أنّني أعرف صاحب علبة اللبن تلك. إنّها تلائم رجلاً مثلك يفتقر لروح الجماعة ويفضّل الحلول الفردية. أنت صاحب العلبة، أليس كذلك؟ لقد لمحتك أمس وأنت تلصق شيئًا على علبة لبن قبل أن تذهب إلى المطبخ! ربّما كنت تظنّ أنّني مستغرقة في أحد الأحلام.

***

"أنا ما زلت صغيرة، ومن الطبيعي أن أكتسب خبراتي من أماكن عمل مختلفة. بل إنّ بقائي في مكان عمل واحد قد يعني تحجّري وافتقادي للمرونة. هكذا يحسبونها هذه الأيّام. نحن اليوم في عالم متغيّر، لسنا من جيل آبائنا الّذين بقوا طيلة عمرهم في أوّل عمل أُتيح لهم، إيقاع الحياة يزداد سرعة. لا... أنا ما زلت صغيرة، وجميلة أيضًا... هاهاها. كنت أعرف بالقرار. لم يخبرني أحد. لاحظتُ كيف توقّفوا عن الحديث معي، ثمّ انقطعوا عن إعطائي عملاً أقوم به. حجّتهم أنّني بطيئة. لكنّ البطيء يزداد سرعة مع الوقت. حسنًا أنا لا أطيقهم أيضًا. هذا دكّان ميت. ماذا يعملون؟ مجلّة للسيّارات، وأخرى للدراجات البخارية، وثالثة للمراكب الشراعية يقرؤها العجزة والمتقاعدون لكي يخطّطوا للإجازة القادمة. كلّ من يعمل هنا يرفل في سنّ اليأس. إنّه دكّان ميت."

***

قسم "الأون لاين" هو المكان الّذي ظهرت فيه أولى علامات الانهيار في الشركة. فهناك اكتشف الموظّفون إفلاس الشبكة، وتعذُّر تحقيق ربح مريح

من وراءها. ورأوا بأعينهم كيف تتحوّل وظيفتهم الأنيقة المحاطة بهالة من الأساطير، والّتي بدأت كبعد جديد للوجود، إلى أمر بسيط يستطيع كلّ امرئ القيام به من حاسبه الشخصي. فتصميم مواقع على الشبكة أضحى بمرور الوقت – وتطوّر البرامج – أمرًا يسيرًا لا يحتاج إلى معرفة معقّدة. كما أنَ تجّار السيّارات، وهم العملاء الرئيسيون الّذين يتوجّه إليهم منتج الشركة الرئيسي "مجلة السيّارات"، رفضوا دفع أيّ رسوم إضافية نظير وجود إعلاناتهم على الموقع الإلكتروني للشركة، بعد أن أصبح لكلَ منهم موقعه الخاصّ وبالتالي ليس بحاجة ماسّة إلى إعلانات إضافية.

وهكذا التهمت الثورة أبناءها، وفقد موظّفو القسم تدريجيًا عملهم بفضل التقدّم الّذي أشاع المعرفة بين الجميع. أمّا التجّار الشطّار فقد فطنوا إلى أنّ الاقتصاد القديم لا يزال الآمر الناهي. فالسيارات يصنعها الحديد ويغذّيها البنزين، وليست مجرّد صور يضعها موظّفون جالسون في مكاتبهم لتسبح في الفضاء الافتراضي. خرجت أجزاء محرّكاتها من مراجل الفولاذ، وألهبت طرقها الإسفلتية أيدي العمّال الّذين عبّدوها. وإذا نضب النفط بقيت هامدة ككومة من الحديد الخردة. هذا هو العصب الحقيقي الذي يدور حوله المال، ومن أجله تُخاض الحروب وتُراق الدماء. وطارت فقاعة الاقتصاد الجديد بعيدًا.

***

– هاهاهاها... رائع. هذا رائع حقًا.

– انظر كيف يبدو بن لادن حقيقيًا جدًا.

– وبوش أيضًا. المسكين مكفيًا على بطنه.

– كيف عملوا ذلك؟ كيف نجحوا في تركيب الصور على بعضها دون أيَ أثر ملحوظ؟ فنّانون حقًا.

– لابدّ أنّهم استخدموا لقطة من فيلم بورنو. وركّبوا رأسَي بن لادن وبوش على أجسام الممثّلين.

– ارسل لي هذا الإيميل أرجوك!

– ...

– ...

– ابن الزانية هذا هو أحد الأسباب المباشرة للأزمة الاقتصادية الّتي تعصف بنا الآن. هل عرفت أنّهم فصلوا خمسة من قسم شؤون العاملين في الطابق السفلي أمس بسبب إجراءات التقشّف؟

– لا تتحدّث مثل بوش وتُرجع كلّ المصائب إلى رأس واحد.

– إنّ هذا لا يُرضي أحدًا، يقتل ثلاثة آلاف بني آدم ويخرّب اقتصاد دول في ساعة واحدة، كم أتمنّى أن يفتّتوا رأسه بصاروخ على جبال تورا بورا!

– وأنا كذلك.

– لكنّه بطل عندكم. أليس كذلك؟

– ألم أشرح لك الأمر ألف مرّة؟

– إذا سرّحوني فذنبي في رقبة ابن الزانية ذلك.

– كلّ ما يهمّك هو مستقبلك المهني. أليس كذلك؟

– وزوجتي وأولادي.

– والتأمين الصحّي وحساب البنك.

– وماذا في ذلك؟ هل تريدني أن أغيّر العالم؟

- ولمَ لا؟ التحق بإخوانك الفقراء في أفغانستان وارفع الظلم عن المساكين الّذين ليس لهم حساب في البنك.

- سيرحَبون بي أكثر إذا جئتَ معي.

- لا تقلق سأوصي عليك.

- مغفّل.

* * *

مالت بي برأسها لكي تدخل في مجال رؤية جرجس وقالت وشعرها القصير الأسود يتأرجح: لقد رأيت سربًا من الأسماك الصغيرة يدور حول نفسه بهلع حتّى أصبح شكله يشبه عنقود العنب. وكان هناك عدد من الأسماك الكبيرة يهاجم العنقود بشراسة فيقتطف منه ما تيسّر من الحبّات، حتّى اختفى العنقود في النهاية. فنظر إليها جرجس باهتمام وقال لها: يا إلهي، أحلامك تزداد دموية مع الوقت يا بي! فردّت بي بهدوء قائلة: لكلّ مهنة مخاطرها. فقال جرجس: عليكِ الحذر إذن، هل تعرفين أنّ كِلا موظفَي قسم التصميم الجرافيكي أصيبا بمرض غامض يؤدّي إلى تفتّت العظام، فاضطرّ أحدهما إلى تركيب رأسًا معدنيًّا لعظمة الورك بعد أن تآكلت، في حين استبدل الآخر عظام كتفه الأيمن بأخرى معدنية؟ زميلنا الفنّي أخبرني أنّ السبب زيادة ضغط العمل علَيهما. فقد أصبحا يقومان كذلك بوظيفة الّذين تمّ تسريحهم.

لم تعلّق بي، فقال جرجس:

- هل استطعتِ إذن كتابة الحلم؟

- نعم.

صمتا قليلاً ثمّ قالَ:

- ما رأيكِ في عنوان "عجلة الإنتاج" للكتاب؟

في البداية فكّرا أن يكون ترتيب الكتاب زمنيًّا، فيكون هناك إثنا عشر فصلاً، يحمل كلّ فصل اسم شَهر من شهور السنة، وفي كلّ فصل توجد الأحلام الّتي عاشتها بي في الشهر المذكور. لكنّ بي اقترحت بعد ذلك تقسيم الكتاب إلى فصول بعدد مطبوعات الشركة، فيكون هناك فصل للسيّارات وفصل للقوارب وفصل للعقارات... الخ. كلّ فصل يحمل اسم المطبوعة وتوجد فيه الأحلام الّتي عاشتها بي وهي تقوم بمسح صور لإعلانات ستُنشر في المطبوعة المذكورة. أمّا الصور فلن تتقيّد بمواضع الأحلام، ولكن ستأتي على شكل متتابعات حسب الموضوع، بين نصوص الأحلام أو بمصاحبتها، فهناك مجموعة العنكبوت، ومجموعة حرب الملصقات، ومجموعة الصور الملتقَطة من نوافذ المكاتب، ومجموعة صور للكراسي ومكاتب الموظّفين الخالية.

* * *

في الطريق إلى المطبخ لاحظ جرجس أنّ ضوء الشمس استطاع التسلّل عبر خصاص نافذة مكتب السكرتيرة حتّى وصل إلى الردهة الصغيرة وانطبع على جدرانها، وتذكّر أنّ فصل الخريف قد حلّ حيث لا يمكن لأشعّة الشمس أن تصل إلى هذه الزاوية الحادّة سوى في هذا الفصل. قاده الضوء إلى غرفة السكرتيرة الصغيرة الّتي تحوّلت إلى مخزن للمهملات بعد أن رحلت، ووسّع فتحة الباب داخلاً إلى الغرفة فوجد الفنّي يراكم بعض أجهزة كمبيوتر القديمة على الأرضية. التقط جرجس بعض الصور للغرفة ثمّ سمع الفنّي يشتكي من كثرة العمل وانهداد حَيله فساعده في صفّ الأجهزة. وأثناء العمل قال الفنّي متذمّرًا: هذا المكان يسير من سيّئ إلى أسوأ، هل عرفت ماذا حدث لمطبخ الطابق الأسفل؟ فنفى جرجس باهتمام، فروى له الفنّي عن قَطع المؤن

عنه أيضًا وبذلك نهاية الصراع المرير الذي شبّ بين الطابقَين. فقد واجه بعض الموظّفين إجراءات التقشّف بالتسلّل التدريجي إلى مطبخ الدور الأسفل الّذي كان لا يزال ينعم بالمؤن، يتحيّنون الأوقات الهادئة في وسط اليوم، ثم يسطون على مطبخ الجيران ليؤمّنوا احتياجاتهم. بالطبع لم يمرّ وقت طويل حتّى انتبه موظّفو الطابق الأسفل إلى النفاد السريع لمؤنهم، فشبّ صراع بين الطرفَين من أجل البقاء، نُظّمت فيه ورديّات للحراسة، وجُهّزت فرَق سطو خاصّة تعمل تحت جنح الظلام. بعد انتهاء عمليـة الرصّ عاد الرجلان إلى غرفة الفنّي وانهمكا في مراجعة ترتيبهما في لعبة رهانات الدوري الّتي يشارك فيها معظم الموظّفين، فاغتمّ جرجس لرؤية مركزه المتقهقر، بسبب فشله في التنبؤ بالنتائج الصحيحة لمبارايات الأسبوع.

***

"أنا أيضًا ليس لديّ طموح مهني، لكنّي الآن في الخامسة والثلاثين وأريد أن أتزوّج وأكوّن أسرة صغيرة وأنجب طفلَين وأبدأ حياتي، كيف سأفعل ذلك؟ أنا أيضًا لا أريد أن أقضي عمري كلّه في هذا المكان، أصُفّ الإعلانات وأنضّدها، لديّ خطط أخرى، لكنّي ما كنت لأمانع لو أنّهم تركوني أعمل هنا خمس أو حتّى عشر سنوات إضافية. والآن أين سأذهب؟ لن أجد شيئًا آخر بسهولة. هل أُريدُ العودة إلى بلدي؟ عليك أن تعرف أنّه ليس هناك أيّ عمل. أنا لا أستطيع العودة فالحرب دائرة هناك ليل نهار، لن أعود بدون مبلغ يؤمّن لأسرتي بيتًا صغيرًا وحياة بسيطة. عليك أن تعمل هنا وتدّخر ثمّ تعود إذا أردت. إذا لم تتعب وتعمل الآن حتّى تكوّن نفسك وتدّخر شيئًا لأيّام شيخوختك فمتى ستفعل ذلك؟ هذه هي سُنّة الحياة."

***

وضعت بي فنجان القهوة بجانب جرجس للمرّة الثانية. جلست إلى مكتبها وثبّتت صورة سيّارة قديمة على جهاز الماسح الضوئي، وضغطت على الزرّ ثمّ أخذت تتلفّت حولها. مرّت فترة ثمّ سألت جرجس إذا كان يرغب في شيء من محلّ المخبوزات القريب. فاستغرب وقال لها: هل أنت على ما يرام؟ فأجابته بأنّها تريد أن تخرج قليلاً. بي ذهبت إلى محلّ المخبوزات واشترت قطعة كرواسان وضعتها البائعة في كيس ورقي، ثمّ عادت. تركت قطعة الكرواسان بجانبها طوال اليوم كتميمة دون أن تمسّها. وعندما سألها جرجس مرّة أخرى إذا ما كانت على ما يرام، إذ ليس من عادتها أن تترك مكان عملها، أو تنشغل بإحضار القهوة الّتي كانت من مهامّ جرجس التقليدية، قالت وهي واجمة: أنا أشعر بالعار. فاندهش جرجس واقترب من مكتبها منتظرًا أن يسمع المزيد. حكت بي عن حفل تجّار السيّارات الّذي حضرته، ثمّ علّقت بوجوم قائلة إنّها لم تكن تعرف أنّها ستشعر بهذا السوء بعدها. سألها جرجس عن سبب ذهابها وهو يعرف أنّها لم تكن ترغب في ذلك، فقالت إنّ رئيس قسمها أمر الجميع بالحضور وإظهار الودّ للتجّار والاستماع إلى مطالبهم، وذلك من أجل ضمان إعلاناتهم. فقال جرجس مطيّبًا خاطرها إن ليس في ذلك ما يدفع إلى الشعور بالعار، كان حفلاً مملاً وحسب. فردّت بي: بلى، لقد ذهبت إلى الحفل لأنّي شعرت بالخوف، خوف لم أكن أعرف بوجوده، خوف من فقدان وظيفتي. قال جرجس: لست وحدك، الجميع ذهب بالتأكيد، فردّت بي بتأثّر: لا لم يذهب الجميع، الباقون قرّروا عدم الذهاب جميعًا. فقال جرجس: لا عليك ليس هذا بالأمر السيّئ، فقالت بي بانفعال: ألا تفهم؟ ألم تسخر من زميلنا الفنّي لأنّه يهتمّ فقط بمستقبله المهني وحسابه في البنك ولم يلتحق بإخوانه الفقراء؟ اندهش

جرجس وقال: بي هل جننت؟ لقد كنت أمزح معه. تابعت بي قائلة: لا. أنت تطالب الآخرين بالتضامن طالما تعلّق الأمر بك أمّا ما عدا ذلك فتؤمن بالحلول الفردية، هذه أنانية. ثمّ انفجرت في البكاء.

* * *

في الأوقات التي يقضيها جرجس منكبًّا على مجموعة صوره وهو جالس أمام بي كان يشعر بأنّ طرافة كتابهما تنبع من اختلاف طريقة مقاومتهما، فبي تقاوم العمل بالغوص إلى الأعماق، بينما يبقى هو دائمًا طافيًا يسجّل اللحظة بكلّ سطحيّتها. ويتذكر كيف أوضحت له بي عندما عرضت عليه فكرة الكتاب أنّ ما يسمّيه هو تضييع وقت أثناء العمل تسمّيه هي مقاومة للعمل. ساعتها وافق على الفور، حيث وجد أخيرًا استخدامًا للصور الّتي يلتقطها منذ أن بدأ تدرّجه العكسي في وظائف الشركة. ورغم جهله بالطابع الّذي سيأخذه عملهما المشترك كان اقتناعه بمشروع الكتاب يزداد يوما بعد يوم حتّى أصبح المحفّز الأساسي لذهابه للعمل يوميًّا. جرجس أصبح يعمل في الأيّام الأخيرة بدأب على مشروع الكتاب بعد أن بدأ ينتابه خوف من أن لا يكتمل. فبي لم يعد في مقدورها مؤخّرًا كتابة الأحلام الّتي تراها إلا بالكدّ وفتر حماسها، وأصبح هو يشعر بأهمّية إنجاز الكتاب الّذي هو فكرتها في الأساس. فقلّت جولاته خارج مكتبه وانكبّ معظم الوقت على فهرسة صوره وصفّها. جرت بين أصابعه صور كثيرة منسية. كان هناك صورة لشعيرات صغيرة متناثرة بجانب لوحة مفاتيح، وصورة لبطاقات الهوية الخاصّة بعدد من الموظّفين الذين رحلوا عن الشركة منذ مدّة طويلة. وصورة لقوس وسهم من البلاستيك كانت السكرتيرة تلهو بهما من حين إلى آخر، صورة لمسدّس ماء، كتاب رأس المال، موقد غاز صغير، سكّين مسنّن، قبّعة مرسوم عليها ذئب

يعوي، اسطوانات موسيقية قديمة، وغيرها من الأشياء الّتي كان يعثر عليها خلال جوالاته بين أيدي زملائه في المكاتب المختلفة. صنّفها جميعًا في مجموعة أسماها "حبّ فاشل".

***

كلّ رحلة لا تذهب إلى القلب وإنّما تعود إليه. كلّ رحلة لا تحمل أملاً باكتشاف أرض جديدة، وإنّما حنينًا إلى مكان يُخيَّل إليها أنّها كانت فيه من قبل. أمّا القلب فيبقى دائمًا على بعد خطوة. تراه من بعيد رغم ظلمة الأعماق الحالكة، تخترق من أجله أكثف الحجب، وتغوص في أحلك الظلمات، لكنّه يبقى دائمًا على بعد خطوة واحدة. يمكنها أن تتبعَ أجمل القناديل أو تمتطي صهوة أسرع الأحصنة لكنّها لا تصل إليه. ورغم ذلك لا يمكنها سوى أن تنجذب عائدة إليه، تهبط شيئًا فشيئًا دون أن يراها أحد، وكأنّها تترسّب داخل نفسها. "ما هو هذا القلب؟" فكّرت بي، وككلّ مرة عجزت عن الوصول إلى أبعد من فكرة رهيبة مفادها أنّ كلّ الأشياء تنبع منه، وأنّها لو وصلت حقًّا إلى هناك لما بقيت هي نفسها، وإنّما تحوّلت إلى امرأة أخرى. سوف تعود إلى السطح امرأة قوية، لا تخاف المستقبل. أعجبها هذا التحوّل فتبعته، وأخذت تخطّط لانتقام رهيب ردًّا على إهانة لحقت بها من أحد الأشرار. ستنظّم حفلاً يجمعه هو وصحبه بعد أن تكون قد دبّرت مكيدة، ستنتظر حتّى يأمن لها ثمّ تكشف للجمع عن رسالة منه تتضمّن فضيحة تمسّ شرفه، ثمّ تأمر بطرده شرّ طردة فيخرج مجلّلاً بالعار. وفجأة تجمّد المشهد ونظرت بي بحرج إلى ضيوف حفل الانتقام، وشعرت بمدى سذاجتها وبمدى فشلها الأبدي في الخروج عن ذاتها. ثمّ استعادت نظرتها، فوجدت عينَي جرجس معلّقتَين بها.

-أين كنتِ؟
خجلت كمن قُبض عليه متلبّسًا وأدارت نظرها إلى شاشة الكمبيوتر وهي تقول:
- لا شيء ذا بال.

***

"عملي لم يكن يحتاج لمهارة من أيّ نوع، يمكن لأيّ شخص القيام به. في الحقيقة عمل زائد عن الحاجة، كغيره من الأعمال. لن يلاحظ أحد أنّي توقّفت عن القيام به، ولن تهتزّ عجلة الإنتاج لذلك. من سيفتقد موظّفة استقبال تتمثّل وظيفتها في استلام البريد والترحيب بالزوّار وإرشادهم إلى الطابق الصحيح؟ مجرّد أكسسوار من الأكسسوارات الحديثة للشركات. أقضي معظم يومي في مراقبة البشر الداخلين والخارجين من باب الشركة، الذاهبين والعائدين في الشارع. أتابع مسارات حركتهم، ألتقط شذرات أحاديثهم، أحتفظ بصور لوجوههم وهي تحمل تعبيرات مختلفة، حيرة، سعادة، رضا، رجاء، لامبالاة. كلّ هذه الأشياء تمرّ عبري، دون أن أحاول التدخّل فيها، أسجّلها فقط اتّقاءً للملل، ثمّ أنساها. كلّ يوم أخرج من المنزل، أقطع صِلَتي بحياتي تدريجيًّا في الطريق، ثمَ أتحوّل إلى شبح ضجر يجلس في مكتب للاستقبال، شبح يكسب معاشه ثمّ يعود إلى المنزل."

***

عندما فتح الفنّي باب الغرفة فوجئ بالظلام الّذي يسودها رغم ضوء النهار في الخارج، ووجد جرجس قابعًا وحده خلف شاشته وقد انعكس وهجها البارد على وجهه. صاح الفنّي قائلاً: جرجس، ما الّذي تفعله؟ لماذا تغلق كلّ النوافذ؟ نظر إليه جرجس وتمتم أنّه يشعر بالبرودة. بقي الفنّي

واقفًا مستغربًا من إجابة جرجس، ثمّ جلس أخيرًا على مقعد بي وسأل إذا ما كان لديه ميلات طريفة أخرى. لم يكن لدى جرجس سوى رسائل تصله من موتى، فمنذ دخول فصل الشتاء هذا العام وهو يبحث في أسماء مرسلي النفايات فعرف أنّها أسماء رجال ونساء مات معظمهم منذ قرون في مقاطعة أمريكية نائية، بل وعَثر على صور لبعضهم. قال الفنّي إنّه تمّ الاستيلاء بالتأكيد على سجلّ مقبرة المقاطعة من على الشبكة لكي يَستخرج منه برنامج إرسال النفايات أسماء المرسِلين، ليس هذا بالأمر الصعب. لم يعقّب جرجس. تأمّل الفنّي وجه جرجس الشاحب تحت ضوء شاشته الفضّية. ثمّ قال له لم أعد أراك تخرج كثيرًا من غرفتك، هل توقّفت عن التصوير؟ فتمتم جرجس أنّه لم يعد لديه رغبة في ذلك. ضحك الفنّي وقال محاولاً جذب انتباه جرجس: لم أفهم أبدًا لماذا يصوّر المرء مكان عمله، ما أعرفه أنّ الهواة يصوّرون أماكن طبيعية جميلة. أمّا مكان العمل فلا أفهم ما الّذي يستحقّ التصوير فيه؟ لكنّ جرجس لم يعلق، فتنهّد الفنّي قبل أن يغادر الغرفة وسأله إذا ما كان يحبّ أن يجلب له قهوة، فهزّ جرجس رأسه نافيًا.

* * *

– ألو!

– بي... كيف حالك؟

– ... بخير.

– وماذا تفعلين هذه الأيّام؟

– (تضحك) منذ أن التحقت بإخواني الفقراء في الخارج وأنا مشغولة كثيرًا، لكن عليّ أن أبحث عن عمل جديد. هل ما زلت تصوّر؟

– لا. حتّى صديقي العنكبوت لم يعد موجودًا.

– وكيف حال العمل؟

– وظيفتي تزداد غرابة يومًا بعد يوم. أستلم يوميًّا رسائل من موتى. تلمع أسماؤهم على شاشتي لوهلة. فيتجدّد ذكرهم في الحياة للحظة. يخبرونني عن أشياء لا يعرفونها كالفياجرا والأرباح الباهظة. قبل أن أمحو ذكرهم بضغطة مفتاح.

– لقد استلمت اليوم نُسخ الكتاب. سأُحضر لك غدًا بعضها.

–حقًّا؟ كيف أصبح شكله؟ هل هو جيِّد؟

– نعم. أعتقد أنّه يعجبني.

– ...

– وأنتَ ماذا تفعل هذه الأيّام؟

– أنا ما زلت في الداخل. أقوم بعملي كما طُلب منّي حتّى ينتهي.

–...

–...

الحوارات

"هو سؤال دائم الحضور. من كثرة تكرار طرحه أصبحت أكرهه. وكأنّ حياتي اختُزلت فيه. البقاء أم العودة؟ لا أدري. أصبحت أفكّر مؤخّرًا أنّ اختزال هويّتك في شخصية المسافر أو المهاجر هو أمر سخيف للغاية، فالعكس لا يحدث. أصدقائي الّذين بقوا لا أنظر إليهم، ولا ينظرون هم إلى أنفسهم، باعتبارهم الباقين. أليس كذلك؟ فجأة تجد نفسك أنّك قد أصبحت آخَرًا في كلّ مكان، كِلّ ما يحيط بي يجعل منّي مهاجِرة ولكنّي لم أشعر أبدًا أنّني مهاجِرة، بل على العكس أشعر أنّني في مكاني دائمًا في كلا المكانَين، لكن كلا المكانَين لا يقبلان ذلك. عليك دائمًا أن تختار مكانًا واحدًا. البقاء أم العودة؟ هنا أم هناك؟ أمر سخيف أليس كذلك؟"

"جئت إلى برلين بسبب رفضي أداء الخدمة العسكرية، فقد عرفت أنّ المدينة تعفي الشبان المقيمين فيها من الخدمة بسبب وضعها الخاصّ. وعندما وصلتُ شعرت بالارتياح رغم وحشتها وسمائها الرمادية. في ذلك الوقت، أواسط السبعينات، كان الشطر الغربي من المدينة جزيرة مقفرة يسكنها المنزوون وغريبو الأطوار ومدمنو المخدّرات. الجميع كانوا غرباء، فرّوا من

مدنهم المحافِظة في غرب ألمانيا. وقدِموا دون أي خطط. فخلال الحرب الباردة كان الغرب يقدّم تسهيلات مالية كبيرة لاجتذاب الناس إلى المدينة الّتي كانت تشكّل نقطة التماس الحسّاسة مع الشرق.

الوضع الخاصّ للمدينة كجزيرة معزولة داخل ألمانيا الشرقية. وانفصالها عن أيّ سياق واسع أو سوق كبيرة أتاح لها مساحة واسعة للتجريب. فرغم الكآبة الوجودية الّتي كانت مخيِّمة عليها في ذلك الوقت، ازدهرت الموسيقى وكثرت الفرق الغريبة. أتذكّر أنّ أحدهم كوّن فرقة عازفيها كلّهم من الخنازير. فكان يخصّص على المسرح زاوية يحيطها ببعض الطاولات المقلوبة فتكون كالزريبة ويلقي فيها بجيتارات كهربائية متّصلة بامبليفاير ثمّ يسوق الخنازير إلى المسرح بعد أن يقدّم لها حلوى الكونياك. وهكذا تبدأ الخنازير بركل الأوتار مصدرةً أصواتًا بشعة في حين يقف الرجُل بجانبها وينفخ راضيًا في آلة الساكسفون. أنظر إلى المدينة الآن بعد سقوط الحائط. لا شيء بقي من هذه الطاقة. لقد أصبحت العاصمة، مجرّد مدينة رسمية، تحيي حفلاتها فرق أصبحت هي الأخرى رسمية كبينك فلويد ويوتو وغيرها."

"إنّني أتحجّر هنا، أموت. لو ظلّت حياتي على هذا المنوال لمدّة خمس سنوات أخرى سوف أطلق على نفسي الرصاص. لا شيء يحدث هنا. لا شيء سوى البلادة والتحجّر. سأعود. ليس لديّ تصورات رومانسية عن العودة. أعرف أنّي سأجد في ساوباولو التعاسة نفسها الّتي أجدها هنا. لكنّ شيئًا ما لا بدّ أن يحدث. حسنًا سوف أذهب إلى مكان آخر. سوف أذهب إلى باريس. أنا أحبّ باريس. اللعنة على الإنجاز. ليس هناك ما يمكننا أن ننجزه. من يريد

أن ينجز شيئًا ملموسًا يراه الجميع فلينجزه. علينا أن نحافظ على ذلك الشيء غير المرئي داخلنا، فهو كلّ ما نملك. هل تفهم؟ نحن لم ننجز أيّ شيء آخر: هذا الشيء غير المرئي الذي نشعر به هو كلّ ما نملك. إذا فقدناه ضعنا إلى الأبد.”

”كنت أشتغِل في صالة ألعاب في بيروت، شو بتسموها؟ هاي صالة للألعاب، فيها أجهزة وركض ومشي وهيك، شو؟ إيه صالة جيم. كنت أشتغل مدرّب. بييجي عندِنا الشباب وأنا أفرجيهم كيف يلعبوا. ما يغرّك هلأ كيف شكلي. زمان كان عندي عضلات صحيح. لكن من يوم ما جيت ها البلد وأنا ما باتدرّب. ما يصحّ لي اتدرب. ممنوع أعمل أنملدونج في صالات الجيم، والغرفة عندي في بيت اللاجئين صغيرة.

وين بدّي اروح! هلأ أنا جالس هون تا نشوف. كسّ اخت هالبلد. عشر سنين وأنا في بيت اللاجئين ولحدية اليوم ما أخدت الورق منشان القضية. قرايب إلي عليهم قضية تزوير والألمان متّهميني إن ورقي كلّه مزور. طب ياعمي أنا شو خصّني بقرايبي؟ عشان اسمي متل اسمهم؟

شو ادرس؟ ما فيّي أدرس، ممنوع، حتّى اللغة اتعلمتها لحالي. لو الله سهّل والقضية خلْصت وأخذت الورق بدّي أفتح صالة جيم كبيرة.

هشتكنا وبشتكنا ياريس دا انت رئيس والنعمة كويس، يامدلّعنا ومشخعلنا. ما شفتها مسرحية الزعيم. شو بيضحّك عادل إمام!”

”لو كنتُ مررت بمرحلة المراهقة في هذه المدينة، لكنت انتميت خلالها بلا شكّ لجماعة البانكس. كنت سأقصّ شعري على طريقة الإيروكيزا وألوِّن

غُرفه باللون الأحمر، وأنتعل حذاء دوك مارتنز الثقيل. وأهيم على وجهي ثملاً مع أصدقائي في طرقات المدينة طيلة اليوم. نتسوّل قوت يومنا. ننبح في كلابنا وتنبح كلابنا فينا. نفخر برائحة عرقنا البشعة وملابسنا الرثة. ونسبُّ الموظّفين الّذين ينظرون إلينا بقرف وهم في طريقهم لأشغالهم. في المساء نذهب لنستمع إلى الموسيقى ونرقص البوجو. وآخر الليل كنت سأشارك في معارك الشوارع ضدّ الفاشيين.

بعد مرحلة البانكس كنت بالتأكيد سأصبح عضوًا في إحدى الفرق الموسيقية الّتي تعجّ بها المدينة. كنت سأنتمي لفرقة تعزف موسيقى الروك: لن نعزف بانك روك أو هارد روك أو آرت روك، وإنّما سنعزف روك صافيًا من كافّة المذاقات والشوائب، روك يليق بنهاية القرن. ستتكوّن الفرقة من لاعب درامز وعازف جيتار وأنا عازف البيز. ثم ستتعدّد الفرق وتتغيّر الموسيقى، وستخلفنا السنين وراءها. وأخيرًا سأُدرك أنّني موسيقي فاشل، وأنّني أضعت حياتي عبثًا، فأتوقّف عن العزف وأصبح أبًا، أو قد ينتهي بي المطافُ وراء أحد البارات الكئيبة أقدّم الشراب لجثث الليل البشرية.

أحيانًا ألمح ذلك الشخص الّذي كان يمكنني أن أكونه ولم أكنه يمرق سريعًا عند منعطف، أو يسير متمهّلاً في شارع عندما أكون أنا أندفع مسرعًا، فأشعر أنّني أرى صورتي منعكسة على طبقات هذه المدينة اللامتناهية. صورة لذاتي لم أكن أعرف أنّها موجودة. شخص لا يشبهني في أيّ شيء ومع ذلك ينتمي إليّ وأنتمي إليه أكثر من أيّ شيء آخر الآن."

"قدّمتُ مسوغات تسجيلي في المدينة إلى الموظّفة: عقد الإيجار وجواز السفر. بعد أن أتمّت الموظّفة كتابة ورقةَ التسجيل أعطتها إليّ. تحرّكتُ بضع

خطوات وأنا ألقي نظرة آلية على الورقة ثمَ جمدتُ في مكاني. عدتُ مسرعة إلى شبّاك الموظَفة.

- هناك خطأ في بياناتي.

- ماذا هناك؟

- أنا فلسطينية.

- وما هي المشكلة؟

- المشكلة أنّك كتبتِ في ورقة التسجيل أنّني إسرائيلية.

- وثيقة سفرك صادرة من إسرائيل.

- لأنّنا نعيش تحت الاحتلال.

- لا يوجد بلد معترف به اسمه فلسطين. أرجوك لا تعطّليني!

- بلى، يوجد بلد اسمه فلسطين، يعيش فيه 3 ملايين آدمي وأنا واحدة منهم.

- هذا أمر لا يعنيني طالما لا توجد أوراق هوية رسمية تثبت ذلك.

- حسنًا أنت لا تفهمين سوى الأوراق، اكتبي إذن ما ترينه أمامك على الورق.

- ماذا تقصدين؟

- أقصد ما هو مكتوب في خانة الجنسية، نعم... نعم... هناك... كما ترين.. الجنسية: "غير محدّدة".

- يا للعجب!!

- لا يوجد دولة اسمها "غير محدّدة" لكنّك ستكتبينها، فهي أقلّ تعقيدًا من كلمة فلسطين، أليس كذلك؟"

"بعد أن استقرّت أموري أخيرًا، وأصبح لديّ تأمين صحّي، ذهبت إلى الطبيب وشكوت إليه ما أعانيه. استمع إليّ ثم سألني إذا ما كنت واقعًا تحت بعض الضغوط هذه الأيّام. فأوضحت له أنّ الأعراض الغريبة الّتي أعانيها ظهرت منذ انتقالي إلى هذه المدينة منذ سنوات. فقال: أنت سليم، عليك فقط ببعض الراحة. وعندما فقدت وعْيي على رصيف إحدى محطّات القطارات أُدخلت المستشفى، وقاموا بفحصي أوّلاً بالموجات فوق الصوتية فلم يعثروا على شيء. استمعوا إلى الأعراض الّتي أعاني منها عندما أفقت، ثمّ قرّروا عمل أشعّة تلفزيونية ثلاثية الأبعاد، لكنّ الصورة لم تكشف عن شيء مريب. ثمّ خرج ضغط دمي عن السيطرة فكان يرتفع وينخفض أكثر من مرّة في اليوم الواحد، واختلّ معدل السكر في الدم بالغًا أرقام قياسية صعودًا وهبوطًا، فأدخلوني إلى جهاز الأشعّة المقطعية لكي يحسموا الأمر كما قالوا لي.

قلت لكبير أطبّاء المستشفى إنّ الأعراض الّتي أعانيها تدفعني إلى الجنون، هناك شيء يخالطني، هناك شيء ينمو داخل جسمي، ولا أحد يصدّقني. فقال: وأنا أيضًا أكاد أجنّ، فلا يوجد لديّ تفسير مقنع للاختلال الّذي أصاب جسمك وقادك إلى المستشفى. صور الإشعاعات الّتي أجريناه لك جعلتنا نرى كلّ خلية في جسمك، لكنّنا لم نعثر على أيّ شيء. عمومًا فقد تحسّنت حالتك الآن ولم تعد تستدعي البقاء في المستشفى. قلت له: أنا لم أعد أنا. فأطرق قليلاً وجعّد جبينه ثمّ قال: لا أحد يبقى كما هو، ما تعاني منه ليس اختلالاً في الوظائف وإنّما تغيّر فيها، ربّما كانت هذه طريقة جسمك للتأقلم مع هواء المدينة."

"لا لم أتعرّض لمضايقات عنصرية في المدينة الّتي كنت أدرس فيها، لكن لم تكن لنا نحن الطلبة الأجانب علاقة وطيدة بزملائنا من السكّان الأصليين، ناهيك عن المواطنين العاديين في الشارع. كان هناك دائمًا خطًّا لا يمكن تجاوزه. نلتقي كثيرًا ونتحدّث ونقضي وقتًا سويًّا في المقاهي والبارات، نتحدّث عن كلّ شيء تقريبًا، كلّ ذلك دون أن يحدث تقارب إنساني؛ وكأنّنا ضيوف في برنامج توك شو، حيث يتبادل الخبراء آراءهم وتجاربهم. كانت أسئلة الناس حول ثقافتي الأصلية تضايقني كثيرًا؛ وأتبرّم عندما يسألني أحدهم عن رأيي في الأحداث الجارية الّتي لها علاقة بمنطقتي. كنت أستمتع أكثر بالأحاديث العادية حول العلاقات العاطفية أو حول برامج التلفزيون أو أيّ شيء بعيد عن حوار الثقافات."

"ستّة أشهر كاملة في زنزانتَي حبس انفرادي متجاورتَين لا يفصل بينهما سوى جدار رقيق. لم يكن ارتفاع الزنزانة يتجاوز المتر والنصف وعرضها المتر. وكنت أسمع همهمات صلواته وأدعيته متسلّلة عبر الجدار، وفي آخر الليل يتناهى إليّ بكاؤه. وكان هو بالتأكيد يسمع صراخي ونوبات جنوني. حاولت أن أتحكّم في درجة صوتي حتّى تبقى منخفضة، لكن ما كنّا فيه فاق قدرتنا على التماسك والاحتمال. وبمرور الوقت أصبحنا نشترك في نوبة بكاء كلّ ليلة بعد العودة من التحقيقات، فكان نحيبه الرخيم يتسلّل عبر الجدار فيلمس فيّ ما يلمس وأبدأ أنا الآخر في البكاء. أحيانًا يرتفع صوتي فيتنهّد هو كأنّه يصغي تاركًا لي المساحة لكي أُفرغ كلّ ما بداخلي، وأحيانًا يتحوّل نحيبه إلى زفرات مقطوعة النفس فأكتفي بالنهنهة.

لكنّنا عندما نلتقي صدفة خارج الزنزانة أثناء توزيع الطعام أو في الحمّام كنّا نتبادل نظرات قاسية. بل كنّا ننهمك في العراك إذا سنحت فرصة لذلك، ربّما لكي نثبت أنّنا لا زلنا على قيد الحياة، أو لكي نتخلّص من ضعفنا الّذي أُجبرنا على اقتسامه. قتالنا لم يكن خطيرًا، فقوانا كانت خائرة، وكان كلّ ما نقدر عليه أن يخمش أحدنا الآخر أو يصيبه بكدمة ثمّ نهدأ بعدها. ستّة أشهر كاملة على هذا المنوال، شيوعي وإخواني في زنزانتَين متجاورتَين داخل سجن النظام البعثي.

عندما التقيته هنا في ألمانيا على قارعة إحدى الطرق تجمّدت من فعل المصادفة. أنا لا أعرف له اسمًا، فقد كانوا ينادوننا بالأرقام، لكنّ وجهه مطبوع في ذاكرتي. في إحدى تلك الليالي دخل الحرس وحملوني إلى سجن آخر ولم أره مطلقًا من يومها، وها نحن ذا نكتشف أنّنا نقتسم ملجأنا كما سبق واقتسمنا محبسنا. توقّفنا لبرهة من الزمن متواجهَين ثمّ احتضنته كما يحتضن المرء رفيق طريق تاه في زحام الحياة، بعدها سار كلّ واحد منّا في طريقه دون أن نتبادل كلمة واحدة، واكتفينا بمعرفة أنّ كلينا لا يزال على قيد الحياة."

"لمّا رجعت مصر لقيت الناس بتعاملني على إنّي السبب في كلّ المشاكل، وكلّه عاش في دور الضحية، طبعًا ما هو سهل أنّك ترمي المسؤولية كلّها على حدّ تاني. غربتي وسفري هي السبب في ولادة ابني المتعثّرة اللي سبّبتله صعوبات في النطق والتعلّم، غربتي وسفري هي السبب في أنّ الشقة بتاعتي السباكة فيها بايظة، وأنّ اخواتي لسّه ما تجوزوش، وغيره وغيره. لأ، اللي عايز يعيش في دور الضحية يعيش فيه بسّ بعيد عنّي، أنا مش الشمّاعة إلّي

هايعلقوا عليها كلّ مشاكلهم، أنا ما عنديش أيّ احساس بالذنب، ده كان اختياري، واتحمّلت تبعاته على قدّ ما اقدر. إنّما يبقى سفري هو سبب كلّ المشاكل فدي حاجة أنا ما اقبلهاش.

لمّا رجعت مصر لقيت حاجات كتيرة اتغيّرت، الناس بقى عندها جشع شديد. جعانين لكلّ أشكال الاستهلاك. بدأت أحسّ أنّ حياتي في برلين ساعدتني أنّي اتخطى الانبهار بثقافة الاستهلاك. أوّل تلات شهور كانوا صعبين، جالي فيهم الضغط، بجدّ. بقى يجيلي صداع جامد ورحت المستشفى وادّوني أدوية. الناس قالت لي ما تحرقش أعصابك، كلّ حتّة بتروّحها هنا دمك بيتحرّق فيها، في الشغل طلعوا عيني علشان يعادلولي الشهادة بتاعتي، حتّى المستشفى، تلاقي دكتور يدخل عليك ويبصّ بصّة وبعدين يطلع من غير لا سلام ولا كلام، في الآخِر ندهتلّه وقُلتلّه اللي بيتكلّم معاك ده دكتور مهندس مش عيل صايع، المفروض عليك تحترم المرضى بتوعك وتكلّمهم وتكشف عليهم وتقولهم هيعملوا ايه بعد كدة، مش تسيبهم مرميّين كده. عارف شوية الأدوية والمهدئات اللي كتبهم طلعو بكام؟ ١٥٠ جنيه!"



السيّد فهمي يذهب إلى حفلة

نقل السيّد فهمي المشجب الّذي تتكوّم عليه ملابسه إلى مدخل زاوية المطبخ، ثمّ قام بحمل طاولة المكتب الصغيرة ووضعها مقلوبة على جانبها جوار الثلاجة، وطوى فراشه وأسنده إلى أحد حوائط غرفته. بقيت بعض الأشياء المتناثرة في الغرفة، فأزاحها جانبًا كيفما اتّفق وأخذ يتطلّع إلى المكان وهو يلهث. لا يزال بعيدًا عن ذلك الفراغ الّذي أسره في غرفة إستير. فكّر وهو يتأمّل الغرفة أنّه يستطيع أن ينام فيها وهي خالية ثمّ يطوي فراشه كلّ صباح عندما يفيق. لكنّ فراغ غرفة إستير كان أكثر كمالاً، كان فراغًا تامًّا لا تعكّره أيّ شائبة، ممّا جعله يفكّر في نقل فراشه أيضًا إلى المطبخ الصغير، والاكتفاء بالجلوس في الغرفة الخالية آملاً أن يستعيد جسده الإحساس بالخفّة الّتي تعرّف عليها في غرفة إستير. ثمّ حان وقت ذهابه، فخرج وصفق الباب وراءه، فترنّح المشجب القريب من الباب وسقط على أرفف المكتبة الصغيرة الملاصقة فانهارت الأرفف بالكتب والملابس وهوت لترتطم بالأرض. أرهف السيّد فهمي السمع لوهلة ثمّ أكمل غلق الباب بالمفتاح.

اتّجه السيّد فهمي لبيت أحد أصدقائه الموسيقيين ليحضر حفلة توديعه، وهناك التقى بأعضاء فرقته الّذين لم يكن قابلهم من قبل. جلس

الجميع على أرضية الغرفة يتحدّثون. قال قارع الطبل إنّه سيأخذ الدولاب الخشبي، وقال عازف العود إنّ تلفزيونه قديم وبإمكانه أن يأخذ التلفزيون. وتردّد السيّد فهمي تحت إلحاح صديقه بأخذ ما يحتاجه معه من الشقّة. ثمّ قال إنّه سيأخذ بعض الفناجين. وعندما ردّ أحد الموسيقيين على طلب الصديق بأخذ كرسيّ المكتب بأن "يأخذه هو" انتبه السيّد فهمي إلى أنّ جماعة الموسيقيين كانت من ذلك النوع الذي لا يزال يضحك على ألفاظ مثل "خد" أو "احطه" أو "مسكته"، ترد في جمل عابرة فيتمّ التقاطها وعمل تنويعات لا تنتهي عليها بدون ملل، للإشارة بطرف يُظنّ أنّه خفي إلى المعنى الآخر لها. وهي عادةٌ ظنّ السيّد فهمي أنّها بادت بعد انتهاء عصرها الذهبي في مرحلة المراهقة.

تابع الموسيقيون مباراة المنتخب الوطني على القناة الفضائية وهم يأكلون، ثمّ أقاموا الصلاة، بعدها شاهدوا ما تيسّر من الأغاني على قناة روتانا، وتساءلوا عن المغنّين الذين لا يعرفونهم، دون أن يتوقّفوا عن الأخذ والحطّ والإمساك. وفكّر السيّد فهمي أنّ الأمر هو بلا شكّ تأثير الثلاجة، فهؤلاء رجال بالغون قد تخطّوا طور المراهقة منذ زمن، إلا أنّهم يعيشون في بلاد أخرى، ووفقًا لنظرية الثلاجة الثقافية يحفظ الراحلون ما أخذوه معهم، ويبقى مدفونًا في صدورهم لا يعتريه أيّ تغيير، والنتيجة أرشيف ثقافي لعادات عفى عليها الزمن، خرجت عن التيّار لكنّها بقيت على قيد الحياة بفضل ثلاجة البُعد.

ثمّ دارت سجائر الحشيش وجلس صديق السيّد فهمي حالمًا وسط مودّعيه يفكّر في حياته القادمة، فهو سيعود إلى مدينته بعد 15 عامًا قضاها في الغربة. قال قارع الطبل إنّه حزين، وقال عازف العود إنّ قرار العودة هو

ضربة قاتلة للفرقة ولأعضائها الّذين يعيشون على نقود حفلاتها. وتساءل ضارب الدفّ: ماذا ستفعل هناك؟ كيف ستعيش؟ يمكنني أن أُحضر لك امرأة غدًا لتتزوّجها وتحصل على الأوراق. لكنّ عازف الناي قال: وماذا أفعل هنا؟ أظلّ ألبس الجلباب والطاقية وأعزف في فرقة للموسيقى الشعبية؟!

في الطريق إلى المنزل قرّر السيّد فهمي أن يؤخّر عودته لأطول وقت ممكن ويعرّج كأيّ مواطن محترَم على البار بعد عناء يوم مجهد ليشرب زجاجة بيرة. وضع الفناجين الملفوفة بورق جرائد بجانبه وجلس يتفكّر في الحفلة. وفي صديقه الّذي لن يراه بعد ذلك. حتّى جاء أحدهم وجلس جواره. سأله عن ولاعة فأعطاه. ثمّ تجاذبا أطراف الحديث. وتعجّب السيّد فهمي خلاله من خبرته الشخصية الآن في ممارسة حوارات البار القصيرة. حتّى أنّه ظنّ أنّه يقوم بأداء دور يعرفه جيّدًا. وغمره شعور غامض بالألفة. كان كلا المتحدّثين يُدير دفّة الحديث كما يقول الكتاب: حديث الطقس. حديث الرياضة (حسب جنس المتحدّث). حديث السياسة (الأمريكية عادةً تليها المحلّية). هجاء الحرب. حديث الأسعار (حسب الموسم). حديث العمل (أو عدمه)، حتّى يتمّ الوصول إلى نقطة حقيقية. إذا قُدِّر للمحادثة أن تطول. يمكن الحديث حولها. نقطة محدِّث السيّد فهمي كانت أنّه يعمل في كافتريا فتحَت أبوابها قريبًا في حديقة صغيرة مجاورة لمسكن السيّد فهمي. فقال له السيّد فهمي إنّه تردّد على الكافتريا بعض المرّات وإنّها أعجبته كثيرًا. لكنّ الموسيقى العالية الّتي تصدح هناك لا تتماشى مع جوّها الهادئ. فقال محدّثه إنّها المرّة الأولى الّتي يشتكي فيها أحد من الموسيقى. لكنّه سيبلغ الأمر لزملائه.

– نحن نبذل أقصى جهدنا لتقديم جوّ مريح في الكافتريا.

– بكلّ تأكيد، هذا واضح فعلاً.

– نحن مهتمّون بجوّ ثقافي متعدّد، تستطيع أن تأتي مع أسرتك وأطفالك.

– بالطبع، لكن أنا ليس عندي أطفال.

– تستطيع أن تأتي مع والدك ووالدتك وأصدقائك، لن تجد أيّ مشكلة، نحن نحبّ حقاً أن يكون لدينا زبائن من ثقافات متعدّدة.

– بكلّ تأكيد، لكنّ والديّ يسكنان بعيدًا عن هنا.

– تأكّد أنّ المكان يرحّب بالجميع من مختلف الثقافات.

– نعم... نعم، من مختلف الثقافات بالطبع، معك حقّ، أنا متأكّد.

الأعراض

المشي إلى الأمام مع إدارة الرأس إلى الخلف.

وجود انطباع مستمرّ بالتباعد وعدم الوصول إلى أيّ جهة.

ظهور ثقب في أحد جانبَي البطن أو كلاهما. الإحساس بالفراغ يتركّز عادة في نقطة أو بقعة معيّنة لم تعد موجودة في الجسم. نقطة أصبحت كالهواء.

اندمال عضو أو أكثر من الجسم. الاندمال يحدث ببطء ويُصيب غالبًا الوجه، حيث يأخذ عضو ما من أعضاء الوجه البارزة كالعين أو الأذن أو الأنف في التحوّر والاندغام داخل نفسه فيصغر تدريجيًّا حتّى يندثر ويتراجع إلى حيث أتى، فيصبح الوجه صفحة تزداد بياضًا مع الوقت حتّى تختفي ملامحه.

نُزوع مفاجئ نحو أكل لحوم البشر والولوغ في دمائهم. سعار أعمى نحو مهاجمة أبناء الجنس نفسه، ورغبة حارقة في مضغ اللحم البشري واستمراء ملوحته.

انقسام في القلب. حيث ينفصل البطين والأذين الأيمنَان عن نظيرَيهما الأيسرَين بحاجز مجهول المصدر.

بتر مؤلم للأطراف كالقدمَين والكفَّين. الجرح المتبقّي يكشف عن دِقّة عملية البتر، كأنّها تمَت بسكّينة مائية مجهولة تسير بدقّة هائلة على خط القطع المحسوب لها.

نشاط مفاجئ للغدّة النخامية يسفر عن انبثاق عين ثالثة تتفتّح فجأة وسط الجبين.

تحوّر لبعض أعضاء الجسم حتّى تقترب من شبيهاتها في مملكة الحيوان، كأن يتحوّل الذراعان إلى فكّي عقرب، أو يكسو الساقَين فجأة جلد مرقّط، أو يتغير الصوت ليصبح عواء أو نقيقًا أو خوارًا.

تضاعف الأعضاء الفردية في الجسد، فينمو عقل جديد بجانب القديم، وينبت قلب جديد في الجانب الأيمن من الصدر.

تَشكُّل صخور جرانيتية صغيرة في الأمعاء تحتاج إلى عمليات جراحية لإخراجها. الصخور تبقى شديدة السخونة بعد إخراجها وتحتاج إلى أسابيع حتّى تبرد.

خروج بخار دائم من الرأس.

تغيّر لون الشعر ولون العينَين.

انبثاق مفاجئ للدم من جروح غير معروفة سابقًا في الجسم.

تقيّؤ سائل لزج القوام يميل إلى اللون الأبيض القاني. نوبات القيء تطول دون أن يفرغ محتوى ما بالجسم من السائل الأبيض.

قدرة خارقة على استرجاع مشاهد لم تحدث من قبل، مصحوبة بعجز عن تذكّر ما حدث للتوّ.

تحوّل تدريجي لأحد جانبَي الجسم إلى زجاج صلب غير قابل للثني أو المدّ. زجاج قابل فقط للكسر.

تشقَق الجلد وبروز غير متوقَّع لأجزاء صلبة تنبت فجأة من الرأس أو من الصدر، وتشبه جذوع الأشجار أو فروعها. وأحيانًا تكون ليّنة كسيقان الأزهار.

قدرة مفاجئة على الوثب لعشرات الأمتار دفعة واحدة.



مسلسل "النائمون"

1 العملية

– من أين أنتَ؟
– من بلد العدالة.
– وأين تقع بلدك هذه؟
– إنّها لا تزال فكرة حتّى الآن، ولكنّنا نحارب من أجل تحقيقها.
– (تضحك) ياللرومانسية.
– ...
– أنا أيضًا أبحث عن بلد العدالة.
– أنتِ لا تعرفين معنى الظلم.
– حقاً؟ وماذا تعرف أنتَ عن الظلم؟
– ...

اخترقنا شارع سكاليتزر متّجهين إلى كوبري أوبرباوم. عبرناه فأصبحنا في فريدريشسهاين ثمّ يممنا وجوهنا شطر المنطقة الصناعية الّتي تطلّ على النهر، حيث كنّا نعقد هناك اجتماعاتنا. المنطقة الصناعية مهجورة لا يوجد بها سوى أطلال مصنع متهالك، وتلال من الرمال والزلط. أكثر ما جذبني إليها هو ونش هائل من النوع المستخدَم في المرافئ. يشبه حصانًا معدنيًّا كبيرًا[1]. له هيكل ضخم وينتصب على أربعة قوائم. كان يُستخدم لنقل البضائع والمعدّات من مكان إلى آخر. الحصان يقبع اليوم هامدًا في جَلال منذ أن غابت الحركة عن المكان. لا يقترب من تلك المنطقة سوى بعض الصبية ومن حين لآخر جماعة من تجار المخدّرات المبتدئين. جلسنا على الرصيف الإسمنتي المطلّ على النهر مباشرةً، وقال عمر إنّه من الأفضل أن نعجّل بالتنفيذ قبل أن تتعقّد الأمور، فأجابه أبو حيّان أنّه على وشك الانتهاء من صنع القنبلة، وأنّه يوافقه رأيه. ثمّ بدأ السجال التقليدي بين الإثنين حول الهدف. فعمر متمسّك بفكرته القائلة بأن ما يجب أن نهاجمه حقًّا هو التاريخ، أمّا أبو حيّان فيُصرّ على استهداف البشر لبثّ الرعب في نفوسهم، وكان نهر الشبْريه يتدفّق هادئًا أمامنا، من حين لآخر يقطعه صندل لنقل البضائع، أو ينقضّ نورس على سطح الماء ليلتقط شيئًا ثمّ يعود إلى السماء. تكسّرت آلاف المرايا الفضّية على سطح النهر وأخذتُ أتلاعب بفكرة المشي وأتخيّل نفسي قد هبطت على قدمَيّ المتدلّيتين من الرصيف الإسمنتي ووقفت على الماء. ينبغي عليّ بلا شكّ أن أتحرّك بسرعة خاطفة إذا أردت الحفاظ على توازني فوق الماء، سأسير بخطوات صغيرة وسريعة، حتّى لا يكاد وزن جسمي يتركز في نقطة واحدة فأغرق، وهكذا تتفوّق سرعتي على قوّة الجاذبية، سأقطع في ثوانٍ عرض النهر وأنتقل إلى الضفّة المقابلة. ثم أخذتُ في

صقل حلم السير على الماء بأن جعلته يبدأ بقفزة في الهواء يعقبها الوقوف لوهلة على السطح قبل البدء بالخطوات الرشيقة السريعة. بعدها أشرّع جناحَين. لا بدّ أن الأطفال سينبهرون برحلة كهذه. ربّما اصطحبت معي ابنة مينو. أفقت على تصايح شديد بين البطّ والبجع للحصول على فتات الخبز الّذي أخذ أبو حيّان ينثره على صفحة الماء، ثمّ رأيت سيّارة غامضة تطلّ من الضفّة الأخرى. كانت سيّارة من طراز لادا تضيء مصابيحها بشكل متقطّع في وضح النهار.

جلسَت مينو في قاعة الانتظار بعد أن ألقت نظرة سريعة على لوحة الأرقام. أظهرت اللوحة رقم ٣٦١، في حين كانت القصاصة الّتي بين إصبعَيها تحمل الرقم ٤٠١، قدّرَت أنّها ستنتظر إذًا ساعة ونصفًا أو ساعتَين. تطلّعت حولها واختلط في فمها عجين الكرواسان مع ماء أسود محلّى بالسكّر منحته لها ماكينة القهوة بعد أن ألقمتها بعض العملات المعدنية. كان الوقت لا يزال مبكرًا حتّى أنّ أثر النعاس بدا واضحًا في عيون الجالسين المحمرّة. راجعت مينو في ذهنها حججها واستعرضت السيناريوهات المحتملة، غير أنّها لاحظت أنّ هناك جزءًا من عقلها لا يزال مخدَّرًا. توقّفت قليلاً عن التفكير، وشعرت بأنّ القاعة بأكملها وقعت في قبضة النعاس. لم تستطع النوم ففتحت عينَيها مرّة أخرى ورأت وجهًا مألوفًا يقبل عليها. ستيفانَ الشابَ الّذي تعرّفت إليه من كثرة التقائهما في قاعة الانتظار. جلس بجوارها وسألها ما الأخبار؟ فقالت كلّه تمام. فابتسم. صدرت نغمة تنبيهية وتحرّكت الأرقام الإلكترونية للوحة الأرقام مظهرة رقمًا جديدًا، فنظرا إليه نظرة آلية. قال ستيفان إنّه حلم بلوحة الأرقام تلك ذات ليلة، رآها وهي

تبتسم له ثمّ تحرّك أرقامها الإلكترونية بسرعة شديدة متجاوزة باقي الأعداد حتّى تصل إلى رقمه، فابتسم عرفانًا ونهض لكنّ قلبه انقبض فجأة عندما اكتشف أنّ القصاصة الورقية ضاعت منه وبالتالي لم يعد يستطيع إثبات حقّه في هذا الدور. ابتسمت مينو وقالت: أنا لا أستطيع إضاعة القصاصات فبنتي تهوى جمعها. ثمّ روى ستيفان كيف أنّهم اكتشفوه على الحدود وأرجعوه، استغربت مينو ذلك، فأوضح لها ستيفان أنّ شبكة الحواسب الآلية الجديدة الّتي يستخدمونها مرتبطة جيّدًا ببعضها البعض، حيث يستطيعون الاطّلاع على ملفّات البنوك وسجلات المؤسّسات العامّة وأنّهم بسهولة يعرفون من الاسم كلّ شيء. لقد قالوا له إنّه ليس من حقّه السفر، فطالما طال عدد سنوات حصوله على الإعانة يسقط حقّه في مغادرة البلاد، لأنّ ذلك يعني أنّه استخدم الإعانة الّتي يمنحونها إيّاه لتبقيه على قيد الحياة في منافع أخرى.

هناك إشارة مرور عند تقاطع شارعَي فيينّا وأورانْيَن، ضوؤها الأحمر يُظهر رجلاً عديم الملامح، ذراعاه مسدلتان وساقاه منفرجتان قليلاً. أمّا ضوؤها الأخضر فيُظهر نفس الرجل وهو يخطو. عند هذه الإشارة تبدأ رحلات أبو حيّان دومًا. لا ينظر إلى الإشارة بهدف معرفة إذا كان من الممكن أن يعبر الآن أم لا، لكنّه ينظر إليها ليتطلّع إلى الرجل عديم الملامح، ينتظر حتّى تصبح الإشارة حمراء، يُلقي التحية على صديقه ثمّ يتلفّت يمينًا ويسارًا ويعبر الطريق مسرعًا. هناك آلاف النسخ من هذا الرجل الأحمر في كلّ زاوية من زوايا المدينة، لكنّ رجل هذا التقاطع الّذي تبدأ به رحلات أبو حيّان يبقى فريدًا في نظره. إذا كان لهذه المدينة صورة واحدة جامعة فستكون صورة هذا

الرجل الأحمر المسكين، عديم الملامح، ممنوع من السير، مسحوق الهيئة، وجوده يتلخّص في كونه مجرّد رمز لتخويف المارّة وتحذيرهم. وها هي شبكة الطرق تنبسط ككلّ صباح، إشارة تؤدّي إلى طريق، طريق تؤدّي إلى إشارة، وأبو حيّان يسير في متاهتها ليس بحثًا عن شيء ولكن شحذًا لطاقته. ليس هناك شيء يمكن العثور عليه في هذه الصحراء، يقول لنفسه. من يعبر الجسر الصغير الملاصق لمتحف برجامون ذات ظهيرة شتوية سيعرف أنّ هذه مدينة أشباح. شارع خال يتقاطع مع شارع خال، من حين إلى آخر تمرّ درّاجة مسرعة، أو تركن سيّارة، ولا أحد. منَ بعيدٍ يلوح شارع أورانْيَنبورج العريض الّذي يمرّ فيه الترام. يسير أبو حيّان تحت سماء رمادية وترد على باله صورة ترام آخَر في مكان آخَر. ثمّ صورة شارع آخَر يسير فيه أناس آخَرون. يمرّ بجوار عربة شرطة وينظر إلى الجالسين فيها. ثمّ يعرّج على حديقة مونبيجو المجاورة، ويستلقي على أحد المقاعد الخشبية. كثير من الحمام مصاب بداء الجذام الّذي يسبب تآكل القدمَين بدرجات متفاوتة، بعض الحمام يعرج عرجًا واضحًا على الذؤابة الّتي تبقّت من قدمَيه عندما يسير على الأرض بحثًا عن الحَبوب. أخذ بصره يستعرض سرب الحمام الّذي هبط للتوّ، يتأمّل حركات والتفاتات أفراده حمامة حمامة، حتّى يتوقّف عند إحداها: كانت أصابعها عفية وأظافرها مصقولة، وتكتسي بجلد مشرّب بالحمرة. أخذ يتابعها باهتمام ثمّ بدأ يشعر بالألم فحاول الاسترخاء وأغلق عينيه.

في البداية لم أميّز حركتها، وعندما رأيتها عارية انخلع قلبي. عرفْت الفتاة الّتي رأيتها اليوم في المنتزه فورًا من الوشم الّذي يزيّن كفلَيها. كان على

شكل جناحين، أعلاهما استقرّت نغزتان. رأيت ثنية فخذها تتوتّر وتسترخي. لم أعرف مصدر العنف الّذي يحيط بي. هل كانت غلمة الفتاة وهي تلوي رقبتها؟ أم كانت حدّة حركات الرجل الذي يأتيها من الخلف؟ أم كون المشهد يحدث وسط الشارع في وضح النهار؟ شُللت تمامًا. هكذا إذن! في وسط الشارع! وتنبّهت بعد وهلة إلى المارّين. كانوا يتجرّدون شيئًا فشيئًا من ملابسهم، أخذت قوّة رهيبة تعبث بوجوههم وتحوّل ملامحها تدريجيًّا إلى ملامح شبقة. المارّون أصبحوا جزءًا من حفلة جماعية صاخبة يمنحون فيها الجنس أو يستقبلونه. لكنّي استغربت عندما لاحظت أن الجميع يتّخذون نفس الوضع وكأنّهم قطيع واحد. بعضهم وهو ينظر إلى ساعته متعجّلاً، آخَرون وهم يتراقصون، الجميع يتناكح على طريقة الكلاب. لم يدعُني أحد للمشاركة بل لم يعبأ بوجودي أحد أصلاً، لدرجة أنّني شككت في أنّي ما زلت على قيد الحياة. ثم تسلّلت إليّ رغبة مرتبكة، سرعان ما قضى عليها رعب المشهد. وتغلّب ذهولي على قدرتي على الحركة فبقيت مجمّدًا في مكاني. لا أدري كم مضى من الوقت حتّى سمعت ونّة ثاقبة. ربّما لحظات قليلة كانت تحتاجها يد صديق الفتاة لكي تجد طريقها إلى الجيب الخلفي لحبيبته، فتستقرّ أسفل الوشم، وأفقتُ على مرأى الجميع وهم يرتدون ملابسهم مرّة أخرى ويستأنفون طريقهم.

قال الدكتور الجالس على المنصّة: "ليس معنى الاندماج أن يتنازل المهاجر عن بعض خصوصيّاته أو عن شعائر دينه، فالمجتمع الألماني لا يطالب المهاجر بذلك، بل إنّ احترامه يزداد دائمًا عندما يهتمّ المهاجر بشؤون دينه ودنياه على نحو معتدل." تفرّس عمر في وجوه الحاضرين،

معظمهم من مرتدي البزّات والكرافاتات. كان عمر يرتدي قبعته المعتادة. كاب أديداس كحلي، وسويت شرت فاتحا مطبوعا عليه كلمة نيويورك، ويفصل بين مقطعيها حرفا N و W متعاقدين. ثمّ اقترب مصوّر من المنصّة والتقط صورة حيّة ستُظهر الدكتور الجامعي يتحدّث كمفكّر. تابع المفكّر قائلاً "الألمان على وعي تامّ بأنّ المسلم، على سبيل المثال، لا يأكل لحم الخنزير ولا يشرب الخمر، وعندما يفعل ذلك أحد المسلمين فغالبًا ما يشعر الألمان بالدهشة إزاء هذا التصرّف." لم يستطع عمر مغالبة الضحك وهو يدوّن الجملة الأخيرة. ثمّ حان الدور على رئيس المجلس الأعلى الذي أثنى على الحوار المثمر والمستمرّ بين الكنيسة والجهات الإسلامية في ألمانيا وشدّد على أنّ الحوار هو الطريق الوحيد لنبذ العنف وإرساء السلام. ثم طالب بمرونة أكبر من الجانب الألماني بشأن بناء المساجد، حيث يحتاج المسلمون دور عبادة خاصّة بهم بدلاً من استئجار أماكن مؤقّتة. عضو المجلس الكنسي بدوره أشاد باللقاء وأوضح أنّ معنى الاندماج ليس الذوبان وإنّما التكامل، وأشار إلى أنّ مصطلح الاندماج ولد بعد تزايد العمليات الإرهابية الّتي قام بها متطرّفون إسلاميون، وهو مصطلح أُريد به حماية الجالية المسلمة في ألمانيا من تعميم تهمة الإرهاب عليها وإدماجها في قلب المجتمع. وأضاف السيّد العضو أن على المسلمين السعي لكسب ثقة الألمان واحترام الركائز الأساسية الّتي يقوم عليها مجتمعهم مثل الحرّية والديموقراطية حتّى تُكلّل عملية الاندماج بالنجاح، الأمر الذي يؤهّلهم للعب دور أكبر في المجتمع. بعد انتهاء الندوة سارع عمر بجمع أوراقه ومغادرة المكان فورًا. وبمجرّد عودته إلى المكتب مساءً هرع إلى الثلاجة الصغيرة ثمّ فتح زجاجة بيرة باردة وجلس يكتب المقال المطلوب منه. عثر عمر على وظيفة مريحة في وكالة للأنباء بعد أحداث

الحادي عشر من سبتمبر، حيث راجت أحوال المتعلّمين العرب الّذين يُتقنون الألمانية. وزاد الطلب عليهم في مشاريع صحفية وثقافية تستهدف خلق حوار بين الثقافات والتعريف بالآخَر. وظيفة عمر كانت تتلخّص في ترجمة الأخبار والمواضيع الصحفية ثمّ إرسالها عبر نظام إلكتروني خاصّ بالوكالة إلى باقي وسائل الإعلام والصحف ووكالات الأنباء، وذلك بعد تدقيقها جيّدًا. وفي أحيان قليلة، لكنّها كافية لإن يصف عمر عمله بأنّه مرهق للغاية، كان يضطرّ لمتابعة أحداث خارجية، معظمها ندوات أو لقاءات فكرية.

الطريق إلى بار دانيال يمرّ بجسر صغير تتهادى تحته مياه قناة رفيعة. على ضفّتي القناة محلان يقعان في مرتبة وسطى بين المطعم ونادي الترفيه: امتدّت طاولات الأوّل على طول الضفّة الغربية، كلّ طاولة تتوسّطها شمعة ترتعش. أمّا الثاني فاحتلّ الضفة الشرقية بلوح الخشب العريض الطافي الذي يشكّل المساحة الّتي يقف عليها زوّاره، وتنبعث منه موسيقى منفّرة. في أمسية صيفية كهذه يتحتّم على الذاهب إلى بار دانيال الخوض وسط كتل البشر الباحثة عن المتعة والمرصوصة على الجسر، عليه أن يحتمل ضوضاءهم ونزقهم وشظايا زجاجهم المنثورة على الأرض. ثمّ عليه أن ينحرف بعد الجسر مباشرة ويستمرّ في السير، حتّى يصل إلى مدخل بناية تقبع في آخر الضفّة الشرقية. بمجرّد أن يدفع الباب الصدئ ويصعد السلّم المظلم سيعرف أنّه ترك المدينة ومباهجها وراءه. بعدها يتوه داخل أحشاء البناية المعتمة وردهاتها الملتوية، يصعد درجًا، يفتح بابًا، ينحرف يسارًا، وينعطف يمينًا، يدور ويعود من حيث بدأ، حتّى تلتقط أذنه الدبيب المرهف، إيقاع

منتظم يأتيه من بعيد. يسحبه في اتّجاهه، حتّى يصل إلى منحنى ضيّق يفضي به إلى غرفة عارية. فيعرف أنّه وصل إلى نهاية العالم. أجلسُ بجوار نافذة عالية تطلّ على الأسطح المثلثة لمصنع قديم وأتطلع إلى الأدخنة البيضاء الّتي ملأت السماء. روّاد البار قليلون. شابّان موشومان، رجل وامرأة. شبح في ركن. الإيقاع السابح في فضاء الغرفة دقيق دقّة معادلة رياضية. من حين إلى آخَر تنفعل المرأة وتصرخ في الرجل بلغة لم أسمعها من قبل. ثمّ تهدأ. صاحب الإيقاع يبسط راحة يده فوق آلة غريبة على شكل قبّة صغيرة دون أن يلامسها. فيصدر صوت أنين يختلف تردّده باختلاف الزاوية الّتي تتّخذها راحة يده فوق القبّة الغامضة. تصاعدت ألسنة لهب من داخل الشابّ الأوّل وانطبعت على رقبته، في حين ارتدى الآخَر دروعًا خضراء على ذراعه. لن أقبل بأيّ حال من الأحوال أن أزيّن ذراعي بوشم. أشرتُ لساقي البار بسبابتي اليمنى قائلاً إنّي أريد كوب مياه. فأشار إليّ بإبهامه مستفهمًا إذا كنت أريد كوبًا واحدًا. هنا يعُدُّ المرء مبتدئًا بإبهامه وليس بسبابته. لم أشهر سبابتي مرّة أخرى وإنّما قلت مُجيبًا: نعم أريد كوبًا واحدًا. كيف ستكون صورتي بوشم؟ لن أتعرّف على نفسي بوشم، لكنّ من يراني هنا بوشم لن يتعجّب. فكّرت أنّ التحلّل هو انفجار بطيء. وانسكب فجأة فوق الإيقاع صوت رخيم يتحدّث عن معجزة حدثت في مكان ما. المرء بحاجة فقط لبعض الوقت حتّى يتأقلم مع الضوء الخافت والجنون الخفيف الّذي يلف نهاية العالم. بعدها يصفو الذهن وتنجلي الروح، وللحظة خاطفة تتحقّق الوحدة الفاتنة، فتحلّ السكينة، يخرج المرء من المدينة بالرغم من أنّه لا يزال في قلبها. ويترك نفسه لذرّات الإيقاع.

ميدان بوتسدامر بلاتس هو جوهرة المدينة اللامعة، حيث يشعّ بريق العمارة الحديثة وأضواء الأسواق والفنادق والمطاعم. لا يقع الميدان في مركز المدينة، لكنّه يحتلّ منطقة كانت منسية في جسمها. فضاء دمّرته الحروب فبقيت أرضه موحشة. ومنذ أن توحّد شطراها والمدينة تسعى محمومة لخلق رمز تعميدها. فتركّزت حمّى التشييد في هذا الميدان لخلق عالم نظيف متكامل يؤذن ببداية تاريخ جديد. وافق عمر مرغمًا على اصطحابنا إليه بعد إلحاح أبو حيّان. تجوّلنا في طرقات الميدان بحثًا عن المكان المناسب، وسرنا عبر التجاويف الّتي رسمتها الخطوط الحادّة لمبانيه. لم يُبدِ عمر أيّ حماس لاختيار هذا المكان، ثم غمرنا إحساس غريب بأنّنا لا نسير في مكان حقيقي، ولكن نسير على شاشات كاميرات تراقبنا، وأنّ سِرينة إنذار ستدوّي في اللحظة التالية رغم أننا لا نحمل أيّ شيء معدني. أُصبتُ فجأة ونحن نسير بإحدى نوبات فقدان التوازن الصوتي فتوقّفت وأملت رأسي ناحية اليسار، حتّى سمعت الأزيز وصوت الفرقعة فرفعت رأسي. لم تكن مفاجأة أن يقترح أبو حيّان سوني سنتر، فهو قلب الميدان العامر بالمقاهي السياحية، ترد إلى باحته قوافل السيّاح للالتفاف حول نافورته الكبيرة ومراقبة تغيّر الضوء داخل الباحة بفضل السقف المصنوع من جزلات معدنية. تتحرّك الجزلات حركة بطيئة فتعكس لونًا مختلفًا مع كلّ دورة. طُفنا مع الطائفين حول النافورة وهمهمنا قليلًا. لم نكتشف ابتعاد عمر عنّا إلا عندما وصلتنا صرخته قائلًا: هذا هو الهدف. توتّرنا ونظرنا حولنا خشية أن يكون هناك أحد يفهم لغتنا، لا بدّ أنّه قد جنّ. عمر توقّف عند مبنى جانبي وأشار إليه وقال: هذا هو هدفنا. كانت واجهة البيت النائي الّذي أشار إليه تختبئ وراء ألواح زجاجية سميكة شفّافة بغرض حمايتها فيما يبدو، دقّقنا النظر وراء ألواح الزجاج فرأينا أعمدة قديمة ونقوشًا غائرة، لا بدّ أنّه مبنى أثري. وفجأة

أصبحت حماسة عمر منقطعة النظير. فأخذ يحرّك مقدّمة كابه حركة خفيفة إلى اليمين تارة وإلى اليسار تارة ويقول وهو في غاية الانفعال "هذا البيت هو القاعة القيصرية. نواة الميدان التاريخية. الجزء الأصيل الوحيد المتبقّي فيه. كلّ المظاهر الحديثة الّتي تشاهدونها أمامكم ترتكز عليه. تستمدّ منه مرجعيتها. إذا نلنا من هذا البيت سيتهاوى الميدان الكبير كبيت من ورق." وقفنا نتأمّل بيت عمر، ونستمع مندهشين من معلوماته وهو يروي لنا كيف قام المهندسون بمعجزة تقنية للحفاظ على البيت الأثري بعد أن تعارض موقعه مع خططهم. فقاموا بتحريكه ٣٠ مترًا كاملة، وذلك عن طريق فصل البيت عن أساساته، وضخّ كمّية هائلة من الهواء تحت قاعدة البيت حتّى أصبحت مثل الوسادة. فأمكن دفعه وتحريكه. أبو حيّان بحلق في عمر وقال "أنت تهذي." ثمّ أشاح بوجهه. لم تتأثّر حماسة عمر وتابع "كان هذا البيت استراحة للقيصر، شهد حربين كبيرتين. كانت ثانيتهما رحيمة معه رغم وحشيّتها وأبقت عليه بعد أن محت باقي الميدان من على وجه الأرض. بذل أبناء الحاضر جهودًا خارقة للإبقاء عليه. إنّ ما ترونه أمامكم هو التاريخ شحمًا ولحمًا فاقتلوه." لم يستطع أبو حيّان أن يستوعب حماقة عمر في تركه كلّ الميدان، وانتقائه هذا المبنى الخاوي. كيف يمكن إهمال سوني سنتر وفيه تتركّز كلّ الأثافي! أنترك الحمار ونتشطّر على البردعة، قال. ثم ثار وصاح "إذا لم توافيكم شجاعتكم للنظر إلى الشيطان في عينيه. فقولوا ذلك بصراحة، أمّا أنا فسأفعلها وحدي إذا اقتضى الأمر."

من يهجر موطنه مرّة واحدة لا يعود إليه أبدًا. فالدنيا تصبح بطولها وطنًا له. دار هجرة واسعة. مدينة كبيرة تنادينا. تدعونا لنفتح أعيننا فنرى حقيقة حياتنا. تدعونا لندرك الظلام الّذي نتخبّط فيه، تقول لنا اتركوا

القرية الظالم أهلها، وفرّوا إلى الله، فرّوا إلى الله. أخذ أبـو حيّـان يتأمّـل تلـك المدينة الفاضلة الّتي بدت له كمدينة متخيَّلة لا علاقة لها بالمدينة الّتي يسير فيها الآن، ولا بأيّ مدينة أخرى رآها. لم يتخيّلها مدينة تشقّها أنهار اللبن والعسل، أو تسكنها الكواعب والأتـراب، وإنّمـا مدينـة عاديـة بهـا شـوارع وبيوت ووسائل مواصلات، بها شمس مشرقة وجوّها معتدل، وربّمـا قطعهـا نهر من شرقها إلى غربها. ولن تكـون مزدحمـة، سـتكون بحجـم سكّانها، وسيكون بها حدائق كافية. غير أنّ ما يميّزها هو حالة أهلها الخفيفة، فهي حالة بسيطة لا تحتمل الشحن والتفريغ. لن يكون هناك سوى القضاء والقدر، وعندما تحلّ بأحدهم كارثة لا يتدبّر في أسبابها ولا يطلب القصاص، فعنـدما يغيب الظلم تنتفي الحاجة أيضًا إلى العدل. سيذهب الجميع إلى أعمـالهم ثـمّ يعـودون إلى بيـوتهم، يخرجـون مسـاء للتنـزّه علـى الكـورنيش مصـطحبين صغارهم، ثمّ ينامون سعداء. لكن مـن يقـدر علـى تخطّـي العتبـة إلى المدينـة الفاضلة؟ هشام لم يقدر، شابت سريرته شائبة، تزوّج وأنجب، لا يزال قلبه عامرًا بذكر الله، لكنّه لم يتخطّ العتبة وبقي في الناحية الأخرى، بيت وأسرة وأطفال، من يدري ربّما أصبح مـديرًا. جمـال ظـلّ مخلصًـا، لم يكـن ضـعيف الإيمان لكنّه لم يكن من جند الله، لم يطمئنّ قلبه وضاع في بحور الفكـر. أيـن هم الآن؟ وأين أنا؟ أخذ أبو حيّان يتطلّع في ركّاب المـترو الّـذي دخلـه لتـوّه، رأى عمّالاً وطلبة وموظّفين، رجالاً ونساء، صيعًا ومحترمين، كبارًا وصغارًا، نظامًا كاملاً من القهر، من ألِفه إلى يائه، وتساءل أبو حيّان كيف لا يرى كلّ هؤلاء دماءنا الّـتي يخوضـون فيهـا، كيـف لا يشـعرون بهـا وهـي تصـل إلى ركبهم، إلى متى تصمّ آذانهم عن سماع الصرخات.

2 التاريخ

– ...

– ما الّذي سنستفيده من ضرب سوق تجارية في ميدان عامّ؟ سيبنون غيره العشرات. محطّات القطارات سرعان ما ستعود إليها الحياة وكأنّ شيئًا لم يحدث. أمّا ضرب ذلك البيت فيعني ضياعه إلى الأبد. والرسالة هي: انظروا إلى قلب أصالتكم الّذي ترتكزون عليه، ذلك الّذي يحميكم من زيف العصور الحديثة. إنّه لم يعد موجودًا، إنّكم ترتكزون على الهواء. مثلنا.

– نحن لا نرتكز على الهواء، لدينا تاريخ عريض لا نلتفت إليه، لذلك لا أفهم معنى مهاجمة التاريخ، فليس كلّ التاريخ هو خصمنا، نحن نفخر بتاريخنا ونستمدّ منه العبر. تاريخ العار والظلم هو الّذي ينبغي مهاجمته، هذا التاريخ لا يوجد في البنايات العتيقة ولكنّه مكتوب في حياة المدينة، هناك نجد ضالّتنا، عندما يشعر أهلها بالرعب والفزع سيعرفون ماذا تعني الحرب الّتي يذيقوننا ويلاتها.

– ما نحن بأبناء التاريخ. نحن أبناء فشل التاريخ، خرجنا من مستنقعه، ولا جدوى من إعادة استصلاحه، الشجاعة الحقيقية هي التخلّص منه مرّة واحدة وإلى الأبد. التاريخ يعني الظلم.

– بدون تاريخ لا توجد أمّة.

– ولكن ستوجد خلية، ستنبثق العشرات من الخلايا. لا تعمل من أجل أمّة ولكن تخلِص في محاربتها للظلم أينما كان.

– التّاريخ هو ما يعصمنا من الفوضى: أسلافنا سهروا على حفظه حتّى لا نذهل عن أنفسنا.

– ولكن انظر جيّدًا إلينا: نحن منقطعون عن تاريخنا، لقد غِبنا عن ذاكرة الجميع. لا تاريخ لنا في هذه المدينة الّتي لا يعرفنا فيها أحد: ولن يكون في يوم من الأيام. ولذلك نستطيع العمل. نحن هنا خارج التاريخ، ألم تلحظ بعد أنّنا نسير فوق القمر متحرّرين من أيّ جاذبية، بل نحن نسبح في الفضاء الخارجي: ألا تستنشق ذلك الهواء البارد: ألا يثير فيك ما يثير فيّ من عواطف: إنّه يجعلني أتخلّص من كافّة الشوائب، فأصبح واحدًا ممّن لا أمّة لهم: وهم كثيرون.

– ما أراك إلا مخطئًا، فالتاريخ لا يتحدّد بالمكان، إنّه لا يسكن بلادنا فقط كما تظنّ. حتّى في الفضاء الخارجي هناك تاريخ يضمّنا، التاريخ هو بالضبط ذلك الهواء البارد الّذي تستنشقه.

اعتصرت السماء وفاضت بحموضتها. وقبل أن ينجرف أبو حيّان إلى طريق كارل ماركس رأى أختًا محجّبة تجرّ ابنها ورجلاً يحاول اللحاق بها، كان يتمايل في وضح النهار ويتطاير من فمه سباب مخلوط برذاذ قذر. كان الطفل مذعورًا في حين حافظت أمّه على تماسكها أثناء سيرها، ولم تنظر خلفها. سدّ أبو حيّان الطريق على المخمور وأمره بالتوقّف، أخذ المخمور يهتزّ ويهذي ويشير بيده نحو المرأة، اشتدّ المطر وصرخ أبو حيّان في وجهه مرّة أخرى فحاول المخمور أن يدفعه ليتجاوزه فأمسك به أبو حيّان وهو يرتعش ثمّ نظر إلى عينَي المخمور الزائغتَين وأخذ يرجّه بعنف. يرجّه... يرجّه وذراعاه ترتعشان حتّى تحلّقت حولَه جماعة من الأشباح ينظرون إليه

في ذهول والمخمور بين يدَيه يعوي. ترك أبو حيّان المخمور يسقط على الأرض وأخذ يصرخ في وجوههم بصوت متحشرج: أيّها الشياطين. ومضى مسرعًا في طريقه بنفس مقطوع، دخل الطريق وأسرع حتّى يذوب في تيّار المارّة. مطر طويل لا ينقطع، ليته كان حجارة من سجيل. سار أبو حيّان وسط المطر مضطرب الأنفاس. والناس يغذون الخطى حوله. منهم من يقي نفسه بمظلّة ومنهم من لفّ معطفه على رأسه. من هم هؤلاء الناس؟ كم هم بائسون. أخذ ينظر بفزع كمن أفاق من حلم، يتطلّع إلى واجهات المحلات الّتي لا يشتري شيئًا منها، وإلى البنوك الّتي لا يتعامل معها، وإلى المطاعم الّتي لا يأكل فيها، وإلى المقاهي الّتي لا يتردّد عليها. ثمّ أخذ يشعر بأنّ انتباهه يُشحذ، إذ كلّما باعد بينه وبين ما يراه كلّما شعر بزيادة تدريجية في طاقته المكتومة، تتزايد الطاقة حتّى تشحن روحه بقوّة باهظة لا تحتملها فتودعها في جزء منها، وكلّما زادت القوّة المكتومة كلّما زاد الانفجار.

نظرت الموظّفة إلى معطف مينو الطويل الملوّن وأبدت إعجابها به مردفة أنّه ولابدّ مرتفع الثمن، تنهّدت مينو وقالت: لا حاجة إلى القلق لقد عثرت عليه في سوق الكانتو. استعرضت الموظّفة البدينة الأوراق الموجودة في الملفّ الملقى على مكتبها وحدجت مينو بنظرة خاطفة من فوق إطار نظّارتها. ثمّ نحت الأوراق جانبًا وعقدت يدَيها على المكتب وقالت: ماذا لدينا اليوم؟ كانت حُجرة المكتب صغيرة، فيها دولاب معدني عريض مملوء بالملفّات. لمحت مينو بجوار رأس الموظّفة لوحة معلّقة على الحائط بها نتيجة ورسم طفولي لوجه يضحك. قالت الموظّفة: أنت تعرفين أنّنا لا نستطيع أن نعطيك الإعانة إلى الأبد، هدف الإعانة هو مساعدتك حتّى تنجحي في الحصول على

عمل مناسب لك يعيد دمجك في المجتمع. لابدّ أن تقدّمي لنا أفكار تساعدنا في الحصول لك على عمل مناسب. أشرق وجه مينو وتنحنحت قائلة إنّ لديها فكرة، إنّها ستستفيد من معرفتها بالموسيقى وستبحث عن وظيفة في شركة لإنتاج الأسطوانات. سألتها الموظّفة إذا كانت تجيد عزف آلة موسيقية، فنفت وقالت إنّها لا تريد إنتاج أسطوانة لنفسها ولكنّها تريد مساعدة الآخرين لإنتاج أسطواناتهم. بقيت الموظفة تنظر إليها ثمّ سألتها: هل أنت مطّلعة على سوق الإنتاج الموسيقي؟ هل هناك مثلاً نوعية معيّنة من الموسيقى تعتقدين أنّ السوق بحاجة إليها؟ اضطربت مينو وقالت لا ولكنّها تستطيع تمييز الموسيقى الجيّدة من الرديئة. زفرت الموظّفة وقالت: هذا لا يكفي، يجب أن تكون أفكارك عملية وملموسة. لن يشغّلك أحد كمستشارة فنّية، يجب أن تربطي بين إمكانيّاتك والربح الّذي يمكن أن يعود عليك من وراء توظيفها. لكن انتظري! الموسيقى فكرة ليست سيّئة. لماذا لا تفكّرين في العمل في قطاع تسويق الموسيقى؟ مظهرك جيّد تستطيعين مقابلة الموزّعين في حفلاتهم وإقناعهم بتوزيع الأسطوانات التجارية. طأطأت مينو رأسها قليلاً ثمّ قالت: أنا لا أجيد إقناع أحد بأيّ شيء ألم تلاحظي ذلك؟ ردّت الموظفة بحزم: عليك أن تتعلّمي كيف تسوّقين نفسك. استيقظ فجأة الجزء المخدّر من عقل مينو فرفعت عقيرتها بالغناء، وصدحت بقصيدة اللامبالاة لكورت تخولسكي كاملة. كان صوتها جميلاً وواضحًا، يعلو ويهبط معطيًا كلّ نغمة حقّها. قامت من كرسيّها في المقطع الأخير وهي مندمجة في الغناء، كان المقطع يصف مشاعر العاهرة وهي تشاهد تجمّعًا ثوريًا من الرجال يرفع الأعلام ويهتف، فتقول العاهرة ساخرةً بعد أن راقبتهم: دعوني وشأني. وبعد أن

انتهت مينو عادت إلى كرسيّها مرّة أخرى وجلست وهي تبتسم كأنّ شيئًا لم يكن.

قبّل عمر صاحبته وهي تغادر الفراش قبلة طويلة. كانت شفتاها طريّتين ولسانها ليّنًا. ثمّ منحته ابتسامة رائقة قبل أن تنهض وبقي هو ممدّدًا مغمض العينَين. وعندما عادت وهي تلفّ نفسها بمنشفة قالت له مبتسمة: هيّا... هيّا حان وقت النهوض. سألها عمر وهو يرتدي ملابسه ما إذا كانت تودّ مرافقته إلى حفلة رأس السنة التّي تنظّمها الوكالة الليلة. فأجابته بأنّها لا تستطيع لكنّها تتمنّى له وقتًا سعيدًا هناك. تحمّس عمر وقال: نستطيع أن نفعل شيئًا آخَر إذا أردت. يمكننا أن نبقى في المنزل. فقالت وهي تدفعه دفعًا رقيقًا إلى باب شقّتها: أنت تعرف كم أنا مشغولة بكتابة رسالة الدكتوراه. أنت تذهب إلى الحفلة وأنا أبقى لأكمل عملي. عندما وصل عمر كان المكان يموج بجماعات من البشر الّذين لا يعرفهم. زرافات ووحدانا. حتّى أصبح من المتعذّر التحرّك دون الاحتكاك بجسد ما. تبادل عددًا لا يحصى من الأحاديث الغريبة مع عدد لا يحصى من غريبي الأطوار. حدّثته فتاة عن حيوان عجيب يُدعى العلجوم الأقرن إذا هاجمه عدوّ، كطائر مثلاً. فإنّه يطلق من عينه دما. يبدو ذلك غريبًا، فيفاجأ المهاجم ويتخلّى عن محاولته. فروى لها عن نوع غريب من النباتات الطائرة الّتي تستطيع إذا اشتدّ الجفاف أن تسحب جذورها وتضم أطرافها حتّى تصبح على شكل كرة خفيفة ثم تترك نفسها للريح لتنقلها إلى مكان آخَر به ماء. ثمّ حان وقت الأحاديث المملّة. أحدهم تحدّث عن حوار الحضارات وجدوى الاندماج وتنشيط ثقافة التسامح. قال عمر للرجل وهو يهزّ رأسه: لا تصدقّ كلّ ما تراه

وتقرأه. غير أنَ الرجل عرض عليه مشروعًا يقوم بـه وتدعمـه البلديـة لفتح حوار مع المسلمين الَذين يعيشون في كنف المدينة بل وعرض عليه الانضمام إلى مشروعه، فقال له عمر: لا أستطيع لأنَني عضو في مشروع اندماج آخَر، فسأل الرجل باهتمام عن طبيعة المشروع الآخَر، فأجابه عمر بسعادة: إنّنـا نخطـط للقيام بتفجير في المدينة لكنّنا لا نعرف بعـد أيـن، بحلـق الرجـل قلـيلاً ثـمَ ضحك بصوت عال، بعدها ذهب معتذرًا بأنّه سيملأ كأسه ويعود. همس عمر لنفسه: كم تفسد مشاهدة التلفزيون عقـول النـاس! ثـمّ دخـل وسـط حشـد لا يعرفه. كان مشغّل الأسطوانات يتنقّل بإبرتـه بـين صـفحات كتـاب الـروك الإنجليزي، وأخذ عمر يتمايل بسـعادة علـى نغمـات سيمباثي تـو ذا ديفـل لفريق الرولنج ستونز، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة الرضى، ثـمّ انتقـل مشـغّل الأسـطوانات إلى بـوب ديـلان، فتنـاهى إلى عمـر صـوته ذي النـبرة الساخرة وهو يقول:

How does it feel, To be on your own, With no direction home, Like a complete unknown, Like a rolling stone.

تعب عمر من الرقص ودار رأسه قليلاً، وفجـأة اقـترب منـه وجـه أبـو حيّان واقترح عليه أن يصرف النظر عن العملية وأن يتّخذوا بعـض الرهـائن عوضًا عن ذلك، وأشار بسعادة تجاه صاحب مشروع الانـدماج كمثـال، فغـرق عمر في الضحك.

تعجب أبو حيّان من أن فيروز لا تزال تناجي صـوتها وتطلـب منـه أن يظلّ طائرًا ليزوبع بالضمائر ويخبرهم عمّا صـار، "بلكـي بيـوعى الضـمير".

وقال لنا موجّها حديثه لها: لا يا سيّدتي، لا يوجد هنا ضمائر يمكن الأمل في إيقاظها. لا توجد هنا سوى نفوس أتلفتها المتع والمباهج. وبصائر أعماها زيف الحياة الدنيا. فطلب منه عمر أن يهدأ. تأخّر الطعام الّذي طلبناه، فحان الدور على "لأجلك يا مدينة الصلاة". تبادلنا النظر أنا وعمر. وخشينا أن ننظر إلى أبو حيّان الّذي بدا عليه التأثّر. توجّه عمر إلى البائع العجوز الّذي يقطّع الشاورمة وسأله: ألا يوجد لديكم سوى هذا الشريط؟ فردّ البائع ببلادة: لماذا؟ ألا يعجبكم؟ قال عمر: بلى ولكنّنا حفظناه. وصديقنا يجترّ ذكريات بائسة كلّما سمعه. ردّ البائع: دعه يجترّ. كلّنا نجترّ ذكرياتنا البائسة. فقال عمر: لكنّنا لم نأتِ إلى هنا للاجترار وإنّما للأكل! فقال البائع وهو يكشط قمع شمع من أذنه بخنصره: يمكنكم العودة من حيث جئتم. ماذا تفعلون هنا على أيّ حال؟ لقد جئتم في الوقت الخطأ، لسنا الآن في التسعينيات، لقد تغيّرت الأحوال ولا أحد يريدكم الآن. عندما خرجنا إلى نور الشارع الباهر ومشينا قليلاً اقترح عمر أن نشتري قطعتَي بقلاوة لنرفع معنويّاتنا، وقفنا في انتظاره أمام الدكّان التركي ودخل هو، بعد قليل عاد بقطع البقلاوة مصفوفة على ورقة بيضاء وغارقة في عسلها. وبعد أن خطينا خطوتَين. سمعنا صوتًا ينادي، فالتفتنا خلفنا فوجدنا صاحب الدكّان ينادي وهو يحمل شنطة ظهر سوداء. عاد عمر ليأخذ شنطته الّتي نسيها، ناول البائع البدين عمر الشنطة وقال له ضاحكاً: لا نريد قنابل اليوم.

لفت انتباه عمر مشهد غريب وهو يتجاوز البوّابة الزجاجية للوكالة، فقد رأى صفوفًا من الزملاء يسيرون بتثاقل وهم معصوبي الأعين وموثوقي الأيدي، ورأى آخَرين يحملون بنادق آلية ويسيّرون الجموع إلى جهة غير

معروفة. صرخ أحد المعصوبين مستغيثًا فانهال عليه مسلّح بكعب بندقيّته ضربًا. وبعد أن اختفى هذا الحشد ظهرت بقع دماء واضحة على الأرض. كانت تبدو دبقة تميل إلى اللون الداكن. من شدّة كثافتها انغرست فيها أحذية بالية وشباشب كانت تنتعلها أقدام حاولت الفرار. استمرّ عمر في سيره وصعد السلّم حتّى وصل إلى الطابق الثاني حيث مكان عمله. ألقى تحية المساء على زميله من القسم الصيني في الوكالة الّذي أنهى عمله، ثمّ دخل مكتبه بهدوء. لم يشأ أن يوقظ السيّد بارتلبي. لكنّ صرخات مرعبة قادمة من الطابق الأعلى دوّت في المكان. انتفض لها بارتلبي على الفور، فألقى عليه عمر تحيّة المساء. زفر بارتلبي قائلاً: إلى متى يستمرّ هذا الوضع؟ لا يمكن للمرء أن يرتاح هنا! جلس عمر إلى مكتبه وشغّل حاسبه الآلي وسأل: ألم يتوصّلوا إلى شيء في المفاوضات الجارية بينهم؟ فأجاب بارتلبي أنّه سمع أنّ إدارة الوكالة ترفض الدخول في مفاوضات كطرف في الصراع، وأنّها اشترطت الاعتراف بطبيعتها المحايدة قبل الجلوس على طاولة المفاوضات. أمّا الثوّار فيهدّدون بذبح الرهائن إذا لم تستجب قوّات الاحتلال لمطالبهم. تبخّرت أحلام عمر في وردية ليلية هادئة، وأخذ يحرّر أخبار اليوم. بارتلبي الّذي طار النوم من عينَيه، ارتدى ملابسه وقال إنّه سيذهب ليتمشّى قليلاً.

استقبلنا الطبيب الشابّ بابتسامة وادعة وأدخلنا إلى عيادته. وجدنا أنفسنا في قاعة استقبال صغيرة بها مكتب أبيض عريض ووقفنا دون أن نقول شيئًا. كانت الساعة تجاوزت التاسعة مساءً ولم يعد هناك أحد في العيادة. قطع الطبيب الصمت ووجّه حديثه إليّ وقال إنّ مينو أخبرته بكلّ شيء وإنّنا نستطيع أن نُدخل أبو حيّان مباشرة إلى غرفة الكشف. ارتدى الطبيب بالطو

أبيض وأشار إلى عمر الّذي رافق أبو حيّان بأن يُجلسه على الكرسيّ المخصّص للمرضى، في حين وقفت أنا على الباب أنظر إلى ما يحدث. قرّب الطبيب المصباح من وجه أبو حيّان الّذي فتح فمه مباشرة دون أن ينتظر أن يترجم له عمر ما سيقوله الطبيب، وبدا مستسلمًا تمامًا. كان الألم قد استبدّ به في الفترة الأخيرة لدرجة لم تعد تنفع معها المسكّنات ولا القرنفل، وكانت نوبات الصداع الّتي تصيبه تبدأ بألم شديد في العصب، ثمّ يأخذ الألم في الازدياد منتقلاً من الفكّ الأيمن ليضغط على الأذن حتّى يصل إلى الدماغ ليبقى هناك. ذات يوم قال إنّه أصبح لا يسمع بأذنه اليمنى. وعندما أخبرت مينو قالت لي إنّها تعرف طبيب أسنان يقدّم خدماته لمن لا يمتلكون أوراقًا بعد انتهاء دوام العيادة نظير مبلغ زهيد. استغرق فحص الطبيب لفم أبو حيّان بضع دقائق بعدها تنهّد ونظر إلى عمر ثمّ قال له: لدينا الكثير لنفعله، هناك خرّاج كبير والعصب ملتهب. فأجاب عمر: أرجوك افعل اللازم وسندفع ما تريد. بعد ساعتَين خرجنا من العيادة بعد أن قام الطبيب بتحديد موعد جديد لأبو حيّان، ودون أن يطالبنا بأكثر من المبلغ الّذي أخبرتني به مينو. عدنا بأبو حيّان وبقينا معه حتّى دلف إلى فرشته، وقال عمر إنّ الطبيب أخبره بأنّه لا داعي للقلق وأنّ حاسّة السمع ستعود إلى الأذن اليمنى خلال أيّام. وأردف: لقد أعجبني هذا الطبيب، إنّه ابن حلال. علّق أبو حيّان ولسانه لا يزال يترنّح تحت تأثير الإبرة المخدِّرة: يا حسرة على العباد! لن ينفع الطبيب الصالح ما فعله، فالجنّة لن يدخلها سوى مؤمنين.

3 عالم الصباح والمساء

- وأنا في الطريق إلى هنا التقيت جاري صدفة في ردهة السلم. كان بصحبته شخص ما، وكانا يتحدّثان لغة غريبة، وبمجرّد أن رآني قطع حديثه وحياني بارتباك، في حين تجاهلني الشخص الآخَر.

- وماذا في ذلك؟

- لا أدري، ولكنْ لوهلة انتابني خوف مفاجئ. أنا أرى جاري منذ سنوات، شابّ لطيف. لم ألحظ عليه شيئًا يثير ريبتي. لكن اليوم في هذا اللقاء الخاطف مرّ في رأسي كلّ ما قرأته عن الخلايا النائمة في الصحف: أشخاص تتّسم حياتهم بالانتظام الشديد، يدفعون الإيجار في موعده المحدّد، لا يتهرّبون من الضرائب والتأمينات، علاقاتهم محدودة، مندمجون في الوسط المحيط بهم إلى درجة ما، لا يثيرون المشاكل، حتّى يأتي اليوم الّذي تصدر فيه الإشارة فينشطون فجأة ويضربون ضربتهم.

- أنتِ تبالغين قليلاً. كلّ ذلك يرجع إلى التركيز الإعلامي الموجّه إليهم هذه الأيام.

- (تتلفّت حولها) ولكن كيف يمكنكِ معرفة ما إذا كان هذا الرجل أو ذاك ضالعًا في مخطّط ما؟ أو أنّه سيفجّر قنبلة بعد قليل في المقهى الّذي نجلس فيه؟ إنّه أمر مخيف حقًّا.

– ربّما. لكن كلّ شيء يمكن أن يكون مخيفًا. كيف يمكنكِ معرفة أنّ مريضًا نفسيًا ما يجلس في هذا المقهى لن يفقد صوابه ويفتح النار بشكل عشوائي على كلّ الجالسين؟

في عالم الصباح يحافظ الغريب على التوازن المرهف بين الحضور والاختفاء، فملامح وجهه المختلفة تجعله مرئيًّا في أيّ مكان يدخله منذ اللحظة الأولى. لكنّ ملابسه، إذا كانت تحمل طابع البيئة المحيطة، تستطيع أن تجعل الانطباع الّذي يثيره معتادًا، كأنّه مواطن نظامي. هذا الشعور بالعادية يشبه جزيرة يرتاح فيها الغريب من عناء يومه المليء بمعارك مستترة تُشَنّ بالنظرات ويُردّ عليها بالنظرات. فكّرْت في ذلك عندما لاحظْت سلسلة المفاتيح الّتي تفشّت هذه الأيّام، كانت تتدلّى من جيوب الجميع، حيث توضع حلقة المفاتيح في شريط طويل من القماش تزيّنه بعض الشعارات أو أسماء بعض الشركات والمؤسّسات. لم أجد شعارًا يجذبني، ناهيك عن أنّي ارتأيت أنّها غير عملية. لكنّي قرّرت أن أهدي أبو حيّان إحداها، فقد كان يُصرّ على فصل نفسه عن كلّ ما تقدّمه المدينة، ويسير في الطرقات ببنطاله الكاشاريل البنّي يطلّ من ياقة بلوفره التريكو قميص كاروهات غير مبال بالنظرات الّتي تتّجه إليه، وكأنّها برهانه على أنّه قادم من مكان آخَر وسيبقى في مكان آخَر.

قبل أن تنتهي الوردية الصباحية تناقلَت وكالات الأنباء نبأً عاجلاً مفاده الوصول إلى اتّفاق يقضي بإطلاق سراح الرهينة الألمانية. ولم تمض بضع دقائق حتّى حضر رئيس الوردية وأعلن صحّة الخبر وطلب من الجميع البقاء

لتغطيته مع التركيز على دور الوكالة في إبرام الاتّفاق. جمع عمر ما تناقلته وسائل الإعلام حول الاتّفاق وتفاصيله الّتي تسرّبت. زميله الألماني بدت عليه علامات الضيق الشديد، وأخذ ينفخ وهو يدقّ بأصابعه على لوحة المفاتيح. تناهت إلى أذن عمر جملة "الآن وليس أيّ وقت آخر. رائع. فليأخذها الشيطان!" تتردّد من تحت ضرس زميله. ثمّ ابتسم عمر وهو يسمع طرفًا من المحادثة التلفونية الّتي أجراها زميله وقام فيها بالاعتذار الشديد عن ميعاده لسبب خارج عن إرادته. تدخّل عمر ليلطّف الجوّ قليلاً فقال: خبر جيّد لكن توقيته سخيف أليس كذلك؟ فانفجر زميله: إنّ هذا استغلال لم أرَ له مثيلا. من يظنّ نفسه؟ سأله عمر عن من يتحدّث، فأجاب زميله: رئيس الوردية! يأتي بكلّ بساطة ويطلب من الجميع البقاء بعد انتهاء فترة عملهم، هكذا بمنتهى البساطة! إن هذا الوقت الّذي نقضيه الآن هو عمل، من سيدفع لنا أجرنا الإضافي؟ لا أحد. عملنا هنا يدور حول شيء واحد فقط هو المال... المال وليس دور الوكالة كما يظنّ سيادته. نظر عمر إلى زميله وهزّ رأسه علامة على أنّ ما سمعه جدير بالاهتمام ثمّ عاد إلى الموادّ الّتي جمعها. تكشّف له أنّ المتمرّدين تنازلوا عن مطلب إنهاء الاحتلال وقبلوا الحصول على فدية مقابل إطلاق سراح الرهينة، بعض المصادر غير الرسمية تقول إنّ الرهينة متواطئة مع الخاطفين، وذلك بسبب مواقفها الرافضة للاحتلال. أمّا دور الوكالة الّذي يجب إبرازه فيتلخّص في نقل مطالب الخاطفين إلى قوّات الاحتلال وتأمين المبلغ المطلوب. وفجأة ومضت أعلى شاشات الحواسب الآلية الإشارة الدالّة على وصول خبر عاجل. كان الخبر هو إعادة اختطاف الرهينة من قبل جماعة أُخرى مسلّحة بعد إطلاق سراحها. صرخ زميل عمر:

العاهرة! لتبقى وسط الإرهابيين مادام ذلك قد حلا لها وتوفّر علينا عناء العمل.

في عالم المساء تتضاءل الفروقات وتحيط غلالة رقيقة بالأماكن المعتمة، وتنفتح أبواب عالم آخر لا يُرى وإنّما يُسمع. رحلاتي الليلية إلى علب الموسيقى، حيث تنتشر موجات الصوت وسط غرف معبقة بدخان التبغ وأبخرة الكحول، جعلتني أكتشف أنّني واحد من هؤلاء الناس الّذين تولد أشدّ أفكارهم أصالة وعمقاً وهم يستمعون إلى الموسيقى. يزلزلهم وقع هذه الأفكار رغم بساطتها. كلّ تآلف من النغمات يأتي بفكرة جديدة تسطع في نفوسهم فجأة، وتتملّك عليهم وعيهم المشبع بالتردّدات. يتحسّسون الأوجه المختلفة للفكرة علّهم ينفذون إلى جوهرها الغريب. يفشلون لكن لا تعييهم الحيلة. فالأرض الّتي تكشّفت لهم تحت الومضات الساطعة هي الّتي طال بحثهم عنها. يجهدون في تلمّس الحقيقة الّتي دنت لهم. وبعد أن تنتهي الموسيقى تتبخّر الأفكار ويبقون عاجزين عن صياغتها. تتهرّب منهم وتتطاير. يلفّون ويدورون سدًى، ثمّ يتزلزلون مرّة أُخرى عندما يأتيهم اليقين بأنّ تلك الأفكار الّتي سحرتهم ما هي سوى محض هراء. وهكذا أخذْت أقضي أيّامي بين إشباع لا يكتمل ويأس لا يدوم، دون أن يضيرني ذلك، فما بدا على أنّه عبث لم يكن سوى بوابة مدينة أخرى دخلتها ولم أكن أعلم بوجودها. مدينة غير مرئية، تظهر وتختفي دون غاية ودون معنى. تطفو على سطح المدينة المرئية كحلم يوم شاقّ.

فكّر أبو حيّان في برج التلفزيون، غير أنّ عمر قال إنّه أكبر من إمكانيّاتنا. انعطفنا يمينا وسرنا بين ممرّات الجزء الخاصّ بجنود الحرب العالمية الأولى، كانت الشواهد مجرّد بلاطات تحمل الاسم وتاريخ الميلاد والوفاة. رأينا صبية لم يتجاوز عمرهم السادسة عشرة، وآخرين طعنوا في السنّ فماتوا وهم في منتصف الثلاثين. تساءل أبو حيّان لماذا لم نفكّر من قبل في بوابة براندنبورجر تور، فهي معلم تاريخي ويؤمّها في الوقت نفسه العديد من السيّاح، ستكون ضربة للتاريخ وللأفراد معًا. لم يتحمّس عمر وقال: بل هي ضربة للسياحة. تابع أبو حيّان: وماذا إذًا عن جسر أوبرباوم، إنّه أيضًا جسر تاريخي، أو تمثال الملاك إلزا أو... أشاح عمر بوجهه وهو يغمغم. ساد صمت طال، وانتابتني رغبة في العواء، أردتُ أن أمطّ رأسي وسط القبور وأرفع عقيرتي بعواء صافٍ، وتخيّلت كيف سينهض الموتى من مملكتهم ليجيبوا على عوائي بأحسن منه. ثمّ قطع أبو حيّان الصمت بملاحظة أدهشته وهي أنّ المكان لا يجتذب الحمام وإنّما بعض القبّرات الّتي لم يرَها من قبل. مررنا بجوار شواهد تحمل آيات قرآنية، كان يبدو أنّها كُتبت على عجل وفيها بعض الأخطاء الإملائية، وتسلّل إلينا شعور بالألفة فأخذنا ندقّق في كلّ شاهد لنقرأ اسم صاحبه واسم القرية الّتي أتى منها. قال أبو حيّان: ما أبهى أن يدفن المرء بعيدًا عن وطنه، فأجابه عمر: بل ما أقساه! كنّا قد وصلنا إلى السور فجلسنا على مقعد خشبي وأخذنا نتطلّع إلى طائرة تهبط على مدرج المطار المجاور. علا صوت محرّكها تدريجيًّا حتّى احتكّت عجلاتها بالأرض ثمّ عاد الهدوء مرّة أخرى ليلفّ المكان. مرّت فترة ثمّ تحدّث عمر عن مبنى برلمان الشرق الّذي يمرّ به كلّ يوم في طريقه إلى العمل، المبنى يُفكّك تدريجيًا منذ الوحدة بسبب احتوائه على مادّة

الاسبستوس الّتي قد تسبّب السرطان. يأتي العمّال كلّ يوم فيُفرغون المبنى من الداخل شيئًا فشيئًا، ينزعون عنه طبقاته طبقة طبقة، حتّى لم يبقَ الآن سوى أعمدته المعدنية منتصبة في الفراغ. وهم يقومون بعملهم بدقّة من يقوم بعملية جراحية حتّى أنّ بعض العمّال كان يرتدي معاطف بيضاء وأقنعة واقية. وعلّق قائلاً: هذا هو استهداف التاريخ. الغرب المنتصر يستهدف تاريخ الشرق في المدينة، لكنّ المنتصر لا يفجّر وإنّما يفكّك قطعة قطعة. تنهّد أبو حيّان وقال: ما لنا نحن وما يفعله غرب المدينة في شرقها، لماذا لا نترك القنبلة ببساطة جوار دار سينما أو في مدخل سوق كبيرة أو على تقاطع شارعَين واسعَين؟ وعندما لم يردّ عمر قال ساخرًا: لماذا لا نترك القنبلة هنا إذًا؟ ستكون ضربة مؤلمة لأشباح التاريخ.

جلستُ إلى البار وطلبت كوبًا من المياه. أحضرته لي فتاة البار بدون تعليق. أصبحَت تعرفني من كثرة تردّدي. منذ أن اكتشفت هذا المكان وأنا أنعم بسلام داخلي، فأذني كفّت عن الإلقاء بي على عتبات البارات والحانات كلّ ليلة لسماع المزيد من غريب الموسيقى. كانت مينو تنتحي الركن المقابل من البار الدائري وتعبث باسطواناتها الّتي تشغلها. شعرها قصير باستثناء ضفيرة نحيلة تتدلّى من جانب رأسها الصغير، عيناها السوداوتان تمتصّان العالم في شغف. رغم إضاءة البار الخافتة تلمع ابتسامتها وهي تضع السماعة على أذنها وتصغي إلى الاسطوانة القادمة. أترك نفسي للغرق في نشوة الاستماع. كانت تعاير نغماتها بميزان حسّاس، استطردَت في باب موسيقى الضوضاء الّتي تكثر فيها الشذرات الناشزة كأنّها شرر آلة جلخ، فكان طريقًا وعرًا مليئًا بالصخور والأحجار، جاهدنا فيه مجاهدات روحية شاقّة، حتّى انفتح أمامنا مشهد واسع تدفّقت منه نغمات مرحة منها ما يسيل كأنّه نهر

ومنها ما يطير كأنّه طير ومنها ما يقف كأنّه شجر، فارتحنا قليلاً، غير أنّ السماء تلبّدت وأخذت تمطر مطرًا خفيفًا، ثمّ رأينا قصرًا بلوريًّا فعرفنا أنّنا وصلنا إلى باب الزجاج حيث تتناهى الأصوات وتشفّ وتتحوّل إلى بلّورات صافية تلتقط الأذن بالكاد هسيسها. ثمّ علا صوت جيتار وحيد يلعب جملة بسيطة وسط الزجاج المتناثر فكان كشعاع ضوء ساطع. عندها فقدت توازني لوهلة، فقد سمعت وشًّا حادًّا يطغى على الأصوات الّتي تصل إلى سمعي، إنّه ذلك الأزيز الّذي يتكرّر في أذني دائمًا مصحوبًا بصوت فرقعة مكتومة قادمة من جهة لا أستطيع تحديدها، ثمّ اخترقت أذني اليمنى "ونّة" ثاقبة تحرّكت حتّى استقرّت في أذني اليسرى، عندها مال العالم إلى جانبه الأيسر إلى الأبد. وساد صمت مطبق لا تخترقه أيّ همسة، كأنّني انتقلت إلى أنبوبة تامّة التفريغ، لا يُسمح لأيّ صوت فيها بالمرور، ولا حتّى الوشيش الدنيوي العادي. أخذت أتطلّع حولي في هذا العالم المرعب الّذي فقد شريط صوته. ثمّ انتشرت موجة دافئة في جوّ البار، وأخذت الأشياء تنفجر في صمت مالئة الهواء بأشلائها كأنّه مشهد سينمائي يُعرض بسرعة بطيئة. رأيت المقاعد تتناثر بعد أن تفسّخت سيقانها، زجاجات البار تنفجر مفرغةً ما في جوفها، اسطوانات الموسيقى تتطاير في كلّ اتّجاه، جنبات مشغلها تتفتّق وترانزستوراته تنطلق على هواها. تصدّعت الجدران وومضت أسياخها الحديدية المتلهّبة كشهب، تراقصت الشوارع بعماراتها العالية، سجائر... قبّعات... مفاتيح... زهور... أوراق... مسامير... شظايا.

كانت فتحات التهوية تفحّ أصواتًا مرعبة. ذهب عمر إلى دورة المياه. وقف أمام المرآة وأوشك على الصراخ، لكنّه تماسك. فكّر مرّة أُخرى فيمَ قالته

صاحبته اليوم عندما سألها لماذا لا يعيشان سويًا في شقّة واحدة، كانت إجابتها أنّها لا ترغب الآن في إقامة علاقة جدّية، ينقصها الوقت والطاقة اللازمتَين لذلك، ثمّ قالت: دعنا نبقى كما نحن، ألسنا سعداء بمَ يكفي؟ عندما عاد مرّة أخرى إلى مكتبه وجد بارتلبي جالسًا على كرسيّ ويتطلّع من النافذة إلى أنوار المدينة. نظر عمر غير مندهش لحضوره المفاجئ. ثمّ سأله بارتلبي إذا كان على ما يرام، فقال عمر بآلية: نعم... نعم كلّ شيء على ما يرام. لكنّك لا تبدو على ما يرام، أردف بارتلبي. فقال عمر: أنا أعمل على قطعة سخيفة عن الاندماج طلبها منّي المدير. ثمّ نهض واعتلى المكتب محاولاً الوصول إلى فتحة التهوية الّتي فوقه، وثبّت ورقة فوق الفتحة وألصقها من كافّة جوانبها. لكنّ صوت الفحيح الّذي كان منخفضًا وعميقًا سرعان ما أصبح أعلى وذي نبرة وترية نتيجة تذبذب سطح الورقة من فتحة جانبية نجح الهواء في شقّها. قال بارتلبي: أرواح كثيرة بقيت عالقة في هذا المكان. كان عمر قد اعتاد مثل هذه العبارات الملغَزة من صديقه-العجوز فلم يهتمّ بطلب المزيد من التوضيحات. احتار عمر قليلاً ثمّ قرّر أن ينزع الورقة الّتي ثبّتها على فتحة التهوية، بعدها جلس إلى مكتبه متعبًا ونظر إلى الشاشة المضيئة.

اصطحب بارتلبي عمر في تمشية داخل الوكالة للتسرية عنه. سارا في طرقات طويلة، وتطلّعا إلى لوحات فنّية تزيّن جدران بعض الدهاليز. سأل عمر بارتلبي: لماذا تخلّيت عن حياتك خارج الوكالة وأصبحت تقيم هنا طوال الوقت؟ فأجابه بارتلبي: أنت تعود كلّ مساء إلى بيتك فهل لك حياة خارج الوكالة؟ توقّف عمر لوهلة مرتابًا ونظر إلى بارتلبي محاولاً فهم مغزى إجابته. ثمّ أخذ يتأمّل قليلاً في حياته الّتي يسمّيها بارتلبي الحياة خارج

الوكالة. أكمل بارتلبي قائلاً: لقد اكتشفت أنَّ حياتي خارج الوكالة أصبحت مجرّد ظلّ لحياتي هنا، هنا يحدث العالم، بينما في العالم الحقيقي لا يحدث شيء أو أنّ كلّ ما يحدث ليس له أدنى قيمة. قال عمر باهتمام: وماذا فعلت؟ فأجابه: رأيت أنّه لكي أخرج من هذا المأزق عليّ أن أبقى هنا. فتساءل عمر: لا أفهمك! فقال بارتلبي: إذا كانت حياتي هنا هي سبب المأزق فعليّ إذًا أن أصلحها، لذلك قرّرت أن أبقى هنا وأرفض القيام بأيّ عمل يطلبونه منّي. انعطفا في ردهة صغيرة ورأيا فيها تجمّعًا بدا أنّ أصحابه يحتفلون بمناسبة ما، فقد ارتدوا ملابس تنكّرية وكانوا يتراقصون على أنغام إيقاعية بحركات ساذجة. دعا المحتفلون المارّين لمشاركتهم، لكنّهما اعتذرا وأكملا مسيرتهما. قال عمر: ولكنّي ما زلت لا أفهم قرارك، تبقى في الحياة المزيّفة لكي تُصلح الحياة الحقيقية! الوكالة امتصّت موظّفيها كما ترى ولم يغيّر هذا أيّ شيء. قال بارتلبي: بلى، لكن لا أحد فيهم يعترض. وأنا متأكّد أنّ حياتك في الخارج الّتي تسمّيها حقيقية لا تخلو أيضًا من الحرب على الإرهاب، لابدّ أنّك تحيط نفسك بأوهام تقوم فيها بالمقاومة أو الرفض. صدّقني لا يوجد سوى الحياة في الوكالة ومن هنا يجب أن تبدأ عندها ستنقشع كافّة الأوهام. هزّ عمر رأسه وقال: أنت مجنون.

4 الكابوس

- ماذا يمنعك من السفر؟

- وماذا سأفعل هناك؟

- نفس ما تفعله هنا، بالمرتب نفسه. إنّه مجرّد فرع آخَر للوكالة.

- أنا لا أعرف أحدًا هناك.

- وهل تعرف هنا أحدًا؟ هناك ستتعرّف على كثيرين من أبناء بلدك، دبي مدينة جميلة.

- ...

- هل ترغب في البقاء هنا إلى الأبد؟ هذه بلاد بلا قلب، ونحن هنا غرباء، وجودنا موقّت. ثمّ إنّ الحرب على الإرهاب ستنتهي يومًا ما ولن تجد عملاً بعدها، لن يحتاجك أحد.

- ...

- أنت لم تعد صغيرًا وزمن المغامرات انتهى، فكّر في مستقبلك.

تقبع برلين في ظلام دامس يمنع أبو حيّان من تكوين فكرة واضحة عنها. الشوارع التي يقطعها كانت تختفي إلى الأبد. ما إن ينحرف ليدخل شارعًا حتّى يُمَحى أيّ أثر للشارع الأوّل الّذي كان يسير فيه، فهو لا يعرف أسماء الشوارع، ولا يقرأ اللافتات المعلّقة، ولا ينتبه لمعالم الطريق، كان فقط يسير. حتّى لو حدث أن دخل شارعًا سبق له المشي فيه، فإنّه قلّما يتعرّف

عليه. فكانت المدينة تنحلّ تاركة خيطًا وراء أبو حيّان كلّما طرقت قدماه طريقًا جديدة. فقط سكّان المدينة يمكنهم ربط الخيوط المتنافرة من خلال حياتهم داخلها. يمكنهم أن يلتقطوا نبضها فيضبطوا عليه إيقاع حياتهم. أمّا الأشباح الّتي تسكنها فلا يمكنها ذلك. فكّر أبو حيّان أنّ عمر ربّما قصد هذا عندما كان يتحدّث عن التاريخ. فالتاريخ هو الّذي يربط أجزاء المدينة المتناثرة، يجعل منها وحدة واحدة. لكن ما الفائدة من ضرب التاريخ؟ سوف تتناثر أجزاؤه كما ستتناثر أيّام حياتي عندما أفقد تاريخي الشخصي. كيف لا يرى عمر أنّ هذا بالضبط هو ما نعيشه، هنا في هذه المدينة تتناثر أيّامنا كجزر معزولة، كشوارع وحيدة لا تربطها خارطة، إنّها بحاجة لعمل يضمّ أطرافها جميعًا في حركة واحدة، يمسك بها كما يمسك الخيط بحبّات العقد، عندها يصبح لها معنى. كيف سيقتص المظلوم من الظالم بدون تاريخ؟ لا أحد يستطيع الخروج عن التاريخ، ومن يخرج يلقي بنفسه إلى التهلكة.

طلب عمر الرقم المسجّل في تلفونه وجاءه صوتها مختلطًا بضوضاء الشارع، سألها عن أحوالها وما إذا كان لديها وقت وترغب في زيارته، فأجابته بأنّها مشغولة تمامًا في الفترة الحالية بالتحضير لمؤتمر كبير تستضيفه جامعتها وأنّها ستسافر بعد ذلك لتقضي عطلة طويلة عند أهلها، ثمّ قالت إنّها ستتّصل به عندما تعود. تمنّى لها رحلة سعيدة ووضع التلفون جانبًا ثمّ أزاح الستارة وفتح النافذة. دخل ضوء يشبه لمبات النيون، بارد وواهن، جعل أشياء الغرفة تذوب في ظلالها الشبحية. فرشة نومه بجوار الحائط، كومة الكتب الصغيرة في الزاوية، الكرسيّ البلاستيكي جوار النافذة. تحت الكرسيّ ثُقلان موضوعان على الأرض المفروشة بالموكيت

الرمادي، كان يستخدمهما في تنشيط عضلاته. وفي حوض المطبخ استقرّت ملعقة صغيرة موضوعة في كوب جفّ ماؤه وتراكمت على جداره طبقة رقيقة تميل إلى الصفرة. خمّن عمر أنّ أيّ أحد يمكنه أن يسكن مثل هذه الغرفة العارية، طالب، رجل على سفر، هارب. أيّ أحد. مجرّد مكان محايد يجمعه بصاحبه ما يجمع مسافر قطار بالديوان الّذي يجلس فيه. بل أنّ الغرفة نفسها يمكن أن تكون في أيّ مدينة. بسهولة يمكنه تخيّل أن يفتح بابها فيجد نفسه في شوارع دبي. ربّما كان الانفجار سيجعله يتجاوز العتبة الّتي تُبقيه خارج المدينة ويربطه بها. لكنّ هذه العتبة هي التاريخ، وهو لا يحمل تاريخ المدينة كما يحمله أهلها، ولا يريد أن يستعيره. اللعنة على التاريخ! كانت السماء في الخارج بيضاء لا تكاد سُحبها تتمايز، اتّكأ بمرفقَيه على افريز النافذة ومال بجذعه إلى الخارج. أخذ يتلاعب بمَ يراه في الشارع، يفتح قبضته حتّى تتّسع لجماعة تسير فيرفعها وينقلها جانبًا، يخبّئ شخصًا يمرّ بجانب شجرة ثمّ يعيده في مكان آخَر، يساعد امرأة تدفع عربة أطفال. فجأة تذكّر أن له صديق دراسة يعمل في دبي، ولم يسمع عنه شيئًا منذ سنوات. كان عمر يزور صديقه في الفترة الّتي انتظر فيها الفيزا، وكان في غاية التوتّر، يخشى أن يضيع من بين يديه العرض المغري، وعمر يواسيه بأنّ الحياة هناك بليدة بمَ يكفي فعليه ألاّ يتعجّل. تذكّر عمر ما قاله صديقه بأنّه لا يهتمّ بدبي ولكن بالشركة المرموقة الّتي قدّمت له الوظيفة. عاد عمر من عند النافذة بعد أن أغلقها وجزع من احتمال أن يلتقيا مرّة أخرى.

أحبُّ ضفيرة مينو الرفيعة. لم تكن ضفيرة ذيل الحصان التقليدية، وإنّما ضفيرة تتدلّى بغموض من الناحية اليسرى لرأسها القصير الشعر، تجعلها تبدو كفتاة مجذوبة من القرون الوسطى. كنّا نقف أنا وهي في بلكونة شقتها الصغيرة ونستمتع بدفء أشعّة الشمس، يأتينا من الغرفة صوت الموسيقى الّتي اختارتها. خلتُ لوهلة أنّ أشعّة الشمس اخترقت أناملها الرقيقة وهي تمرّ بيدها على رأسها. كانت بشرتها شفّافة تكشف عن حُمرة زاهية مستقرّة في أعماقها. سألتني مينو إن كنت أتذكّر آخر مرّة صرخت فيها، استفسرت منها إن كانت تقصد الصراخ ألمًا أم الصراخ غضبًا، ففكّرتْ قليلاً ثمّ أجابت "الغضب يخفي الألم، أليس كذلك؟" قلت لها "لماذا تسألين؟" فروت لي أنّها مرّت اليوم بثلاثة صبية أتراك يلعبون الكرة وهي في طريقها إلى دكّان السجائر، وبعد خروجها من الدكّان سارت عائدة قبل أن يرتجّ رأسها فجأة بفعل اصطدام جسم مقذوف بصفحة وجهها. كانت الكرة. بعد أن أفاقت من الصدمة نظرت بذهول خلفها فرأت الصبية يضحكون وهم يسرعون بالانسحاب. فلم تدْرِ بنفسها إلا وهي تنفجر بالصراخ وتسبّ الصبية وتتوعّدهم، وهي لا تصدّق ما حدث. إذا وقع أحدهم في يدها ستفتك به فورًا. "لا أدري إذا كنت أصرخ ألمًا أم غضبًا ساعتها، الاثنان معًا ربّما، فالضربة كانت موجعة وعلى حين غرّة. لكن ما أثار رعبي هو اختفاء أيّ ملامح طفولية لهؤلاء الصبية الّذين لم يتجاوز عمرهم العاشرة من أمام عينَيّ. لقد كانوا في هذه اللحظة أعدائي فقط. إلى هذا الحدّ يُعمي الغضب؟" تعالى صياح الأطفال في الشارع وهم يلعبون فضحكنا على هذا التعليق ورغبتُ في جذبها برفق من ضفيرتها واحتضانها، لكنّي أدركت فجأة وبوضوح شديد لون عينَيها الضارب إلى خضرة داكنة، كان يشبه خضرة الطحالب في أعماق

البحار. سكتنا قليلاً، ثم ابتسمت مينو وقالت سأسمِعك الآن اسطوانة لفريق الأذن الثالثة عثرت عليها بالصدفة في محلّ الأنتيكات، انتقلنا إلى حجرتها ووضعت الاسطوانة، انساب إيقاع منتظم ومددت لها يدي فأعطتني يدَيها وأخذنا نتبادل الدوران حول محورينا، لابد أنّ رقصتنا كانت تشبه رقصة شعبية ساذجة من بلد ما. دوران ثمّ تمايل ثمّ دوران، بدأت السعادة تغمرنا رويدًا رويدًا ونحن نتنطّط على الإيقاع دون أن نتبادل كلمة واحدة، أنا أدور وهي تدور.

هدأ التوتّر. انقطع فجأة وتحوّل إلى صمت كثيف. في البداية أخفى عمر وأبو حيّان عجزهما عن الكلام عن طريق حركات خرقاء، عمر عبث بكابه وأبو حيّان غرز عيدانا رفيعة في تراب الأرض. بعدها استسلما لذلك العجز وبقيا ساكنَين. ذلك هو النهر الّذي كنّا نسبح فيه دومًا، نقفز إليه كلّما ضاقت بنا السبل. نلتقي على غير موعد، نظهر فجأة لبعضنا البعض، نسبح قليلاً في نهر صمتنا ثمّ نختفي. فكّرتُ في مينو ثمّ شعرت بالذنب. فلم يحِن الوقت بعد لاستعادة ذاتي. عليّ أن أطيل بقائي في هذا النهر، عليّ أن أهدّئ مخاوفي. أخيرًا زفر عمر وقال إنّه ذاهب إلى العمل. ضحك أبو حيّان وسألني إن كنت أستمع إلى عبد الحليم حافظ كثيرًا هذه الأيّام، ثمّ قال إنّه سمع الكثير عن غراميّات ما قبل الحرب، شابّ عربي يأتي إلى أوروبا، يقضي وطره من المدينة ثمّ يتعرّف على فتاة لطيفة ويستقرّ معها. ليس لزامًا أن تنتهي هذه الزيجات بالفشل، أو أن تسكن آفة الزيف مشاعر الطرفَين، بل إنّ بعضها مثال للزواج الناجح. غير أنّ هذه الغراميّات تقوم على خروج أحد الطرفَين، أو كلاهما في أحسن الأحوال، عن جلده، والالتقاء على أرض بكر يصنعانها

سويًا. في زمن الحرب تبور الأرض. تنعدم الأراضي البكر. وتمتدّ ألسنة النار حتّى تنفذ إلى الأعماق وتسكنها. نظرتُ حولي وأنا حائر. ثمّ رأيت كابينة القيادة الّتي تشغل رأس الحصان المعدني. لم يكن أمامي سوى أن أصعد. هذا أفضل ما تراءى لي. أخذت أصعد بجدّ الدرجات المعدنية. كلّما صعدت درجة وجدتها تعود إلى أعلى فيكون عليّ صعودها مرّة أخرى. أصعد أصعد حتّى وصلت إلى مقعد القيادة. وما إن جلست حتّى انبسطت أمامي المدينة كما لم أرَها من قبل. وغمرني فرح مفاجئ فأخذت أحرّك مقابض التشغيل فارتفعت ساقا الحصان الخلفيتان ورفستا الهواء. ثمّ شبّ الحصان وهو يصهل على خلفيتيه ونهض شيئًا فشيئًا حتّى علت ساقاه الأماميتان ولوّحتا في وجه الأفق.

فتح عمر عينَيه ونظر بدون تركيز ثمّ أغمضهما مرّة أخرى لثوان. وعندما فتحهما على اتّساعهما للمرّة الثانية كان بارتلبي واقفًا أمامه ينتظر استيقاظه. بهت عمر وأخذ ينظر حوله. كان زملاؤه لا يزالون يَغطّون في النوم. تساءل عمّا إذا كانت نومته قد طالت. فأشاح بارتلبي بيدَيه قائلاً لا عليك. ثمّ أردف مبتسمًا بخبث: سمعت أنّك تفكّر في الذهاب إلى دبي. الجوّ هناك شديد الحرارة كما أعرف. لذلك أعتقد أنّه سيكون من الصعب عليك أن تهنأ براحة النوم الّتي عهدتها هنا. فأجابه عمر: ربّما. ولكن على الأقل لن أضطرَ هناك لأن أكتب مقالات تبعث على النوم مللاً مثل مقالات الاندماج. ثمّ روى بارتلبي لعمر ما سمعه مؤخّرًا من أنّ فرقة من المرتزقة تسمّي نفسها "جنٌّ فوق الجيّد" أخضعت الطابق الثالث لسيطرتها. وأنّ القادمين من هناك نقلوا معهم أنباءً عن عمليّات قتل عشوائية. قال عمر: بارتلبي. ليس

باستطاعتي أن أتحمّل المزيد، أودّ أن أخرج من هذه اللعبة الآن. فأطرق بارتلبي ثمّ أجابه: ولكنّك لن تترك الوكالة يا بُني، إنّك ستنتقل من هذه الحجرة إلى أخرى مجاورة، هذا كلّ شيء، الحرب على الإرهاب موجودة هناك أيضًا. قال عمر: إذًا دبي في كلّ مكان. ثمّ هدأ قليلاً وأردف: بارتلبي، أنت شبح، لم ترَ أيّ نهاية لكلّ الحروب الّتي شهدتها، وأنا لا أريد أن أظلّ مثلك شبحًا.

ذهبتُ إلى موقعنا على ضفّة النهر لكنّ أبو حيّان لم يظهر. حطّ سرب صغير من الحمامات وأخذ ينقب الأرض الرملية. طفت بطّتان قريبًا من الضفّة ثم قفزت إحداها إلى الحدّ الإسمنتي الّذي يفصل الماء عن اليابس وجعلت تنظّف نفسها. فردّت بجعة جناحَيها وشدّت رقبتها الطويلة وطارت محدثة جلبة، وأخذ غراب وحيد يراقب المشهد من بعد. تساءلت ما إذا كان هذا الغراب هو الّذي تكاثرت عليه الحمامات ذات مرّة بعد أن أرهقها وضيق عليها المأكل. فقد أخبرني أبو حيّان أنّه كان يراقب غرابًا دأب على مزاحمة الحمامات في مكان المأكل، فيهبط وسطها بعد أن يراها وقد اجتمعت حول طعام فتفزع منه وتهرب، حتّى جاء يوم ورأى أبو حيّان لدهشته الشديدة كيف تجرّأت جماعة من الحمامات وهاجمت الغراب بأجنحتها ومناقيرها بعد أن هبط وسطها، وتكاثرت عليه حتّى ولّى الأدبار. في المرّات الّتي لا أجد فيها أبو حيّان على ضفّة النهر جالسًا يطعم الطير كعادته، كنت ألتقيه نائمًا على مقعد خشبي في الطريق، أو سائرًا ينظر إلى الأمام في شرود. لكنّه أحيانًا كان يختفي دون أن يعرف أحد أين ذهب، ودون أن يعلّق هو على الأمر. وعندما يختفي لا يخلّف أيّ أثر وراءه، وكأنّه فصّ ملح ذاب في ماء المدينة. لا يوجد ما يشير حتّى إلى أنّه كان موجودًا، فهو لم يمتلك أيّة أوراق ولم يكن

له أصدقاء. في المرّات الّتي يختفي فيها أفكّر أحيانًا فيما إذا كان قد غضب وقرّر أن يذهب لوحده إلى سوني سنتر كما قال، وأحيانًا أخرى أشفق عليه من أن تكون آلامه قد ازدادت. فهو لم يذهب إلى الطبيب مرّة أخرى. لكن من كثرة اختفاءاته بدأ يتملّكني يقين محيّر بأنّ الاختفاء هو طبيعته الأصلية، هو جوهر وجوده، كحلم تزداد واقعيته كلّما ازدادت المسافة الّتي تفصله عن الواقع.

كان عمر يحتسي زجاجة البيرة الّتي أمامه غارقًا في أفكاره عندما ظهر فجأة أبو حيّان وجلس أمامه. كان يرتدي تي شيرت يحمل عبارة Bomb Mitte ثمّ خطف الزجاجة وأخذ يعبّ منها حتّى أفرغها وسط ذهول عمر، الّذي قال وهو غير مصدّق: ماذا... ماذا تفعل هنا؟ فقهقه أبو حيّان وأجابه: كما ترى أجلس معك في المقهى، أم إنّه لا يحقّ لي ذلك؟ فقال عمر وهو لا يزال مذهولاً: منذ متى تشرب أنت البيرة؟ وأجاب أبو حيّان بدون تردّد: منذ اليوم يا صديقي. تأمّله عمر قليلاً ثمّ قال: لقد تغيّرت يا أبا حيّان. فأجابه بابتسامة تنمّ عن الرضى: وأنت أيضًا. ها أنت ذا تفكّر في مستقبلك المهني وتريد الذهاب إلى دبي، أليس كذلك؟ هل ستقاوم التاريخ هناك أيضًا؟ انفعل عمر قائلاً: ماذا تريدني أن أفعل؟ هل تريدني أن أقضي حياتي بطولها في أوهام؟ أريد أن اخرج من هذه المدينة. حدجه أبو حيّان بنظرة قاسية وقال له: لقد جعلتَ منّي ضحية للظلم، ومناضلاً من أجل العدالة. أنا المظلوم، المؤمن بالجنّة، الساذج، الشرّير، الظلامي، كاره الحياة. حوّلتني إلى قنبلة موقوتة. وكلّ هذا لماذا؟ من أجل ماذا تحتاج شخصًا مثلي، شخصًا مكروهًا، شخصًا لا تستطيع المدينة ابتلاعه؟ هل تريد أن تنتقم منها

لأنّها ابتلعتك وأخرجتك من مؤخّرتها؟ بُهت عمر وقال مصعوقًا وقد زاغت عيناه: من أنت؟ أنا لا أعرفك؟ ضحك أبو حيّان ضحكة شيطانية وقال: أنا كابوسك الّذي صنعته بيدَيك. ونهض تاركًا عمر لا يعرف ما إذا كان ما رآه خيالاً أم حقيقة.

- لماذا؟
- لغاية نعجز حتّى عن صياغتها أو تسميتها.
- لماذا؟
- مثلي مثل أيّ إنسان تافه لا يملك سوى أن يضحّي بنفسه من أجل غاية أسمى.

انطلقتُ كالمجنون أبحث عن مينو في البار حتّى عثرت عليها، كان المكان مزدحماً فخضت وسط الأجساد إلى أن وصلت إليها وقلت لها إنّني أريد أن تأتي معي فورًا. اندهشَت قليلاً ثمّ سألتني إلى أين، قلت لها إلى غرفتي. رمقتني مستفسرة، غير أنّي فقدت السيطرة تمامًا على نفسي وأخذت أسحبها من يدَيها آمرًا تارة ومتوسّلاً تارة أخرى. أخذَت مينو تنظر إليّ باستغراب، وتحاول طمأنتي بأنّه لا يوجد خطر يتهدّدني. قطعنا شارع الفرسان المظلم حتّى وصلنا إلى باب البيت، فتوقّفت رافضة الدخول واستدارت إليّ وسألتني بجدية: ما الأمر؟ لم أرك أبدًا بمثل هذا الشكل! لماذا لا تتكلّم؟ كانت يدي ترتعش وهي تحمل المفتاح وضربات قلبي تتسارع بجنون وحلقي جافَ كحطبة، قلت بآخر ما لديّ من طاقة: مينو، هناك شيء يجب أن أطلعك عليه. صعدنا إلى الطابق الرابع حيث غرفتي، أدرت المفتاح بصعوبة، ودخلنا ثمّ أغلقْت الباب خلفنا. سأفعلها الآن، لا مفرّ الآن من أن أفعلها. قُضي الأمر.

جلست بجانبها على الأريكة دون أن أنظر إليها. وانهمكتُ في حل عقدة رباط حذائي. بعدها اعتدلتُ وقلتُ بصوت خائر: مينو، الآن سأفتح لك قلبي لترَي أكثر أركانه بشاعة. نظرت إليّ برعب وأنا أنحني لأخلع فردة حذائي اليمنى فاليسرى، ثم قلعت الجوربَين بحرص. فتطاير بعض النثار. بقينا لحظات صامتَين. هي تبحلق بذهول في قدميّ، وأنا أترقّب في هلع ردّ فعلها على سرّي الّذي سيحدّد مصيري. ندت عن مينو شهقة وهي تنظر إلى ما تبقّى من سلاميات قدميّ المتآكلة التي انكشف عنها اللحم واستحالت إلى نهايات هشّة تكفي لمسة واحدة لتفتيتها. لم أعد أحتمل فصرختُ قائلاً إنّي أتحلّل يا مينو، وأجهشتُ بالبكاء. قالت مينو: يا آلهي! تحشرج صوتي وأنا أقول لها إنّ ما يخيفني هو استطاعتي السير وكأنّي شخص طبيعي، منذ أن جئت إلى هذه المدينة وأنا أذوب، أتحلّل، أتلاشى، أخاف أن أختفي يومًا ما. نظرَت إليّ مرّة أخرى ثمّ نهضَت وتوجّهَت إلى النافذة.

شعر أبو حيّان بعد عبوره الجسر أنّه في مكان غريب. مصدر غرابته يكمن في هدوئه الشديد، فبعد موجات الحركة الّتي كانت تضطرب على الجسر، وأصوات الموسيقيين المتجولين، ونداءات بائع الورود الميتة، وصيحات أطفال المدارس، حلّت سكينة غريبة في هذا الشارع الّذي دخله أبو حيّان. هدوؤه لفت انتباهه، حتّى أنّه جلس على مصطبة خشبية وُضعت حول إحدى شجرات الدلب بجانب الشارع، وأخذ يراقب ما يحدث. كان شارعًا عاديًّا بجوار القناة، لا يبلغ طوله سوى بضع بنايات على كلّ جانب، واجهاتها مليئة برسومات عجيبة وألوان غريبة، كان هناك محلّ درّاجات، ومحلّ بقالة، ومقهى صغير لتقديم المشروبات الساخنة والمعجّنات. لم يكن

أحد يسير في الشارع. فقط جلس صاحب محلّ البقالة على عتبة دكّانه. ووقفت امرأتان أمام باب أحد البيوت. تخلّلت ألفة غريبة نفس أبو حيّان لم يختبرها من قبل. ألفة تجاه البيوت والأشجار والمحلات. وعجب من قدرته على الإحساس بارتعاش أوراق الشجر عندما تهبّ نسمة هواء. لم يكن يسمع ذلك الارتعاش ولكن يشعر به. وتساءل أيّ نوع من الناس يسكن هذا الشارع، لابدّ أنّهم أناس طيّبون. اقتربت قطّة رمادية مخطّطة من أبي حيّان. فخطر على باله للمرّة الأولى أنّه لم يرَ قطّة واحدة في شوارع هذه المدينة. راقب حركاتها المتردّدة وهي تتقرّب منه، وسمع مواءها الرفيع، فكّر أنّها ما زالت صغيرة. سمح لها بالاقتراب أكثر. كانت من ذلك النوع من القطط الّذي يألف البشر بسرعة. وأخذت تتمسّح في قدمَيه وهي تموء مواءً لا ينمّ عن جوع أو حاجة ملحّة، مجرّد مواء لقطّة صغيرة في السنّ. ثمّ لاح ظلّ وسمع أبو حيّان رفيف أجنحة تحرّكت لها أغصان الشجرة الّتي يجلس تحتها، ورآهما يتقدّمان في اتّجاهه وعلى وجههما ارتسمت ملامح الجدّية. كانا يرتديان السواد، عرفهما على الفور. إنّهما الملاكان، انتظر حتّى وصلا إليه وابتسم لهما ثمّ نهض وسار معهما.

شاع جو من البهجة في مكان العمل بعد الظهيرة، فقد أحضرت السيّدة وردة زجاجة من النبيذ الفوّار وبعضًا من شطائر كعك التفّاح وطلبت من الحضور مشاركتها في احتفالها بعيد ميلادها. تحلّق الجميع حول الطاولة الدائرية الّتي نُصبت وسط الغرفة ورفعوا كؤوسهم ليشربوا نخب السيّدة وردة. تبادل الزملاء حديثًا باسمًا أشادوا فيه بجودة الكعك وحسن اختيار النبيذ، ثمّ دار حديث حول هجمات المترو الأخيرة في لندن، قال السيّد ذو الرمح لا أعتقد أنّهم سيهاجمون المترو عندنا، بالتأكيد سيهاجمون ميدان

بوتسدامر بلاتس. تنهّد عمر في قرارة نفسه وفكّر أن على أبي حيّان أن يكون موجودًا هنا الآن ليعرف كم كانت خطّته مكشوفة. تناول السيّد ذو السكّين شطيرة كعك وسأل عمر الّذي كان يقف بجواره: أيّ هدف كنت ستختار لو كنت... أقصد ما هو الهدف الّذي يمكن لإرهابيين أن يختاروه في هذه المدينة من وجهة نظرك؟ نظر إليه عمر ورشف من كأسه البلاستيكي. ثارت السيّدة وردة وقالت ما هذا السؤال السخيف. لماذا توجّه لعمر مثل هذه الأسئلة. قال السيّد ذو السكين إنّه لا يقصد شيئًا البتّة. رفع عمر حاجبَيه فزفر جميع الواقفين وهم يبتسمون ببلاهة.

عادت مينو من مكانها أمام النافذة ووقفت أمامي. كنت خائر القوى. لم أقوَ حتّى إلى النظر إليها. أمسكتْ رأسي بين كفّيها ورفعته لتلتقي عينانا. ثمّ أخذت تحرّك رأسي يمينًا ويسارًا. شعرْت أنّها تريد أن تمنحني شفقتها بممازحتها تلك. فجفلت منها. جلسَت مينو بجانبي وقالت: حسنًا. ثمّ أخذت تشمّر بنطلون ساقها اليسرى. التقت عينانا مرّة أخرى فابتسمَت. ثمّ نظرْت إلى ساقها فوجدتها أصبحت شفّافة لدرجة أنّه تعذّر عليّ رؤيتها. ما بين الركبة والحذاء توجد ساق أصبحت غير مرئية. سألتها بتلقائية هل أنت أيضًا عضو في تنظيم سرّي؟ قالت: لا. ولكنّ العديد من أصدقائي حدث لهم نفس الشيء. صديقتي تارا اختفى جسدها كلّه. لن تصدّق عينَيك عندما تراها. إنّها ليست سوى وجه. أمّا كاف فحتّى وجهه اختفى ولم يتبقّ سوى عينَيه. لذلك أطلق لحيته وارتدى قبّعة عريضة تُخفي ملامحه. سيناو لديه فجوة في صدره يمكنك أن تمرّر يدك خلالها. كان وقع المفاجأة مذهلاً فأخذتُ أضحك بسعادة. مينو أيضًا كانت تضحك. سألْت مينو: كيف حدث لكِ ذلك؟

فقالت وهي تهزَ كتفيها: لا أدري. لقد حدث فجأة. ثمّ قالت: هل تريد رؤيتهم؟ وسط هذه الفرحة العارمة كان بإمكاني أن أنفذ أيّ اقتراح لمينو. فأجبت: بالطبع. مينو قالت: إذن هيا بنا. في الطريق سألتني مينو ما الذي كنت أقصده عندما ذكرت كلمة تنظيم سرّي، وقالت: هل أنت عضو في تنظيم سرّي؟ أجبتها: أعتقد ذلك. ابتسمت وقالت: ولماذا تعتقد ذلك؟ فقلت إنني أسمع صوت فرقعة طيلة الوقت. هناك شيء ما ينفجر بقربي دوما.

في صباح رائق وبعد أن أوشك عمر على الانتهاء من ورديّته الليلية كتب الخبر التالي:

ألمانيا/إرهاب/برلين
انفجار قنبلة في ميدان بوتسدامر بلاتس
(حصيلة أوّلية مع ردود أفعال)
أفادت مصادر متطابقة أنَ انفجارًا قويًا ضرب ميدان بوتسدامر بلاتس في وسط العاصمة الألمانية برلين صباح اليوم، وفيما هرعت سيّارات الإطفاء والإسعاف إلى مكان الهجوم أفاد شهود عيان بأنّهم سمعوا دويّ انفجار قويَ في الساعة التاسعة والنصف صباحًا بالتوقيت المحلّي (الحادية عشرة والنصف بالتوقيت الدولي) وشاهدوا أعمدة من الدخان الكثيف ترتفع من المنطقة. وتمّ الاعلان عن سقوط خمسة قتلى وعشرات المصابين. وتركّزت الخسائر الماديّة في مبنى سوني سنتر التجاري، حيث أصيب بدمار بالغ، حسب مصادر حكومية. ولم تعلن أيّة جهة حتّى الآن مسؤوليّتها عن الانفجار. يُذكر أنَ ميدان بوتسدامر بلاتس من أهمّ الميادين الحيوية في

العاصمة الألمانية الّتي تجتذب إليها أفواج السياح كلّ يوم. وقد تمّ إعادة إعماره بالكامل بعد الوحدة بين ألمانيا الشرقية والغربية. وأعلن متحدّث باسم وزارة الداخلية أنّ وزارته لا تستبعد أن يكون الحادث إرهابيًا. وفي أوّل ردّ فعل شجب مسؤول رفيع في وزارة الخارجية الأمريكية الهجوم وقال إنّه يثبت أن لا أحد في مأمن من الإرهاب وأنّ الحرب عليه يجب أن تستمرّ. ومن المعروف أنّ ألمانيا كانت من الدول الّتي عارضت الحرب على العراق، ممّا جعل بعض المراقبين يرون أنّها غير مستهدَفة من قبل المتطرّفين الإسلاميين. وعلى الفور بدأت الأجهزة الأمنية الألمانية شنّ حملة اعتقالات واسعة في أوساط الإسلاميين. على صعيد آخر استنكر نديم الياس رئيس المجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا الهجوم واعتبر أنّ الاسلام بريء من هذه الأفعال، محذّرًا في الوقت نفسه من التسرّع بإلصاق تهمة الإرهاب بالجالية المسلمة على وجه العموم. مفوّضة شؤون الاندماج في الحكومة الألمانية ماريا بومر قالت إنّه يوم أسود لعملية التعايش السلمي.

أعاد عمر قراءة الخبر، ثمّ تطلّع إلى لوحة المفاتيح الرمادية، بعدها رفع بصره إلى الشاشة وهزّ إصبعيه بحركة سريعة ثمّ مدّ خنصره الأيمن إلى المسافة المطلوبة وهوى به على زرّ enter.

تحلّقوا حول نار أشعلوها. كانت خيالاتهم ترتعش عندما اقتربنا. وجوههم نضرة تعكس حيوية النار، بعضهم لفّ جسده ببطّانية، وآخرون راق لهم تقليب الحطب فأخذت الجمرات تتوهّج مصْدرة طقطقات مفاجئة. جلسْت ملتصقًا بمينو الّتي احتضنت طفلتها، أنظر إليهم وينظرون إليّ. عاد

إلى أذني صوت الأزيز الّذي تكرّر لي سماعه دون أن أعرف مصدره. أصبح الآن واضحًا قويًّا. لأوّل مرّة استطعت تمييز صوت مثقاب هوائي. اختلط به صوت سريان سائل متقطّع، كأنّه صوت صمّام يفتح فتمرّ دفقة ماء ثمّ يغلق. ثمّ أدركت صوتًا عميقًا يشبه انزلاق صفيحة أرضية على أخرى. نظرت مندهشًا إلى مينو محاولاً معرفة إذا كانت تسمع هي الأخرى ما أسمع. مينو ابتسمت وقالت إنّها أصوات أعمال البناء. فسألتها أيّ بناء، فقالت بناء ميدان بوتسدامر بلاتز الّذي نجلس الآن على حوافّه. فزادت دهشتي لأنّ أعمال البناء كانت قد انتهت قبل وصولي إلى المدينة. اقتربَت منّا فتاة وعرّفتنا إلى نفسها: اسمها رِجيت، وددت أن أعرف أيّ جزء من جسمها اختفى، فروت أنّها ذهبت ذات مرّة لشراء أحمر شفاه وعندما أرادت اختباره نظرت إلى المرآة فاكتشفت أنّها غير موجودة. لم تعثر على شفتيها أو وجهها، رأت فقط أجساد العابرين الّذين يتحرّكون خلفها. تعجّبْت: إذًا أنت لا تعرفين كيف تبدين؟ فقالت في البداية كان الأمر صعبًا: تخيّل أن تنظر إلى المرآة لترى نفسك ثمّ لا تجد أحدًا. لكنّها اكتشفت طريقة طريفة وهي أن تذهب إلى آلة التصوير الآلي وتجلس على الكرسيّ الصغير وتتطلّع إلى المرآة العاكسة، في البداية لم ترَ سوى الستارة الخلفية لكنّها عندما ضغطت على زرّ التصوير خرجت أربع صور متماثلة لها فرأت نفسها. وقالت وهي تضحك باستحياء إنّ لديها الآلاف من تلك الصور الرباعية محمّلة بآلاف التعبيرات الّتي تحاول أن تراها على وجهها.

تطلّعتُ إلى بنايات ميدان بوتسدامر بلاتز الشاهقة ثمّ رأيت ومضات ضوء أزرق بجوار مبنى سوني سنتر فخمّنت أنّها لسيّارات الشرطة. فنظرْت

إلى مينو مستفهمًا. مينو قالت إنّ سيّارات الشرطة والإسعاف تحاصر المكان منذ حادث التفجير. سألتها: وهل وقع حادث تفجير في سوني سنتر؟ فأجابت: لا، ولكنّ مُرتادي المكان من السيّاح فوجئوا ذات يوم بنبأ عاجل على شاشات الميدان يقول إنّ قنبلة انفجرت فيه، ورغم دهشتهم لأنّهم لم يشعروا بأيّ تفجير فقد أصيبوا بهلع عارم وتزاحموا لمغادرة المكان، وعلى الفور حاصرت الشرطة الموقع. ثمّ سألتني: ألم تسمع بهذه الحادثة؟ فقلت لا، فنصحتني بأن أركّز انتباهي حتّى أستطيع التقاط الأصوات. أصخت السمع بانتباه، إلى أن تناهت إليّ أصوات جلبة من بعيد مختلطة بسرينات إنذار، ثمّ ميّزت صوت الفرقعة الّتي كنت أسمعها باستمرار. أكملت مينو إنّه منذ ذلك اليوم ومبنى سوني سنتر قد تجمّد عند هذه اللحظة، لا أحد يستطيع الخروج منه أو الدخول إليه، وبقيت قوات الشرطة مرابطة لسنوات تحسّبًا لأيّ احتمال.



السيّد فهمي يركب المترو

نقل السيّد فهمي نظره إلى النافذة، وتابع الأوراق القليلة الّتي لا تزال ترتعش على أغصان الشجرة المواجهة. تمرُّ رياح الخريف الهوجاء فتهزُّ الأوراق هزًّا عنيفا وتُميل الأغصان الّتي تحملها بقسوة حتّى تنفصل إحدى الوريقات فتطير بعيدًا. ثمّ أرجع نظره إلى الرسالة الّتي يكتبها لإستير. كتب لها أنّ أوضاعه تحسّنت تدريجيًا في العام الماضي وأنّه يعمل الآن بانتظام كممثّل في إحدى الفرق المسرحية. وقال لها إنّه لا يزال يفكّر في سؤالها حول عدد الأشياء الّتي يحتاجها المرء من حوله لكي يعيش. فهو لاحظ أنّ حاله أصبح على عكس حالها، فالأشياء الّتي يحتاجها حوله للحياة لا تتناقص بل تتزايد. فقد اشترى مؤخّرًا كنبة مريحة يسترخي فوقها الآن وهو يكتب لها، ومكتبةً تضمّ ما تناثر من كتبه على أرضية الحجرة. وأخبرها أنّه بدأ يلاحظ ميلاً لديه لاقتناء تفاصيل منزلية عديدة من سوق الأشياء المستخدمة. أباجورة قديمة، مجموعة من الصحون، كوميدينو صغير يوضع جنب الفراش. وضع السيّد فهمي الرسالة جانبًا على الطاولة وغادر غرفته.

في اللحظة الّتي انطلقت فيها النغمات التحذيرية قبل غلق باب عربة المترو اندفع رجل ليمرق بخفّة في الفتحة الّتي أخذت تتناقص تدريجيًا بين الضلفتَين. اصطفق الباب ثمّ غادرت العربة رصيف المحطة. ربض الرجل خلف الباب وألصق رأسه بزجاجه وأخذ يتطلّع باهتمام إلى المحطّة وهي تتوارى، وبعد أن دخلت العربة النفق أدار ظهره ووقف ينظر إلى الركّاب القليلين وهو يمسح بيده حبّات العرق الراشحة فوق جبينه.

شعر السيّد فهمي بالارتياح بعد إنهائه مشوار الضرائب السنوي. وجلس يفكّر في المسار الّذي ستتبعه الضرائب المدفوعة داخل جسم الدولة. إنّها مبلغ تافه بلا شكّ، لكنّها مساهمة لا يمكن للدولة أن تستغني عنها وهي تضع ميزانيّتها، والدليل على فرط أهمّيتها أنّ الموظّف فرض عليه العام الماضي غرامة بسبب التأخّر في الدفع. وقال السيّد فهمي لنفسه: مثلي الآن مثل غيري من المواطنين الجالسين حولي في العربة، المدينة تسير بفضل النقود الّتي أدفعها، وموظّفوها يحصلون على مرتّباتهم منها، تمامًا كما سبق وسمع أحدهم يقول ذات مرّة ساخطًا على معاملة الموظفين السيّئة له.

لم تكد العربة تتوغّل داخل النفق المظلم حتّى انفتح الباب المؤدّي إلى العربة التالية، ودخل مفتّشان معهما كلب شيفر. اندهش الركّاب لأنّ الأبواب الداخلية تكون مغلقة دائمة ولا تفتح إلا في حالات الطوارئ. تقدّم المفتشان مباشرةً إلى الرجل الواقف قرب الباب، دون أن يبدو عليه أيّ أثر للدهشة. صوّب أحد المفتّشين ناظريه إليه ووجّه له كلامه: "هل تظنّ أنّك ستفلت منّا؟ هه؟ هل تعتقد أنّنا أغبياء إلى هذه الدرجة؟ أين تذكرتك؟" فردّ

عليه بهدوء: "ليس معي تذكرة." فانطلق المفتّش يقول في حدّة: "تستطيع أن تفعل ذلك هناك في بلادكم، أمّا هنا فيوجد نظام. هل تريد أن تركب على حساب الآخرين، على حساب دافعي الضرائب، هه؟ لماذا لا تنطق؟" المفتّش الآخر لم يكن يتكلّم، فقط يمسك بالكلب ويستمع إلى ما يقوله زميله ناظرًا إلى الرجل الواقف قرب الباب. أكمل المفتّش المنفعل كلامه: "أين أوراقك؟ من أين جئت؟ في المحطّة القادمة سنسلّمك إلى الشرطة حيث سيعرفون قصّتك، بالتأكيد ليس لديك أوراق، ما أنت سوى طفيلي تحبّ أن تعيش عالةً على المجتمع، ستستلمك الشرطة وترجعك من حيث أتيت".

لم يطلب المفتّشان من أحد إظهار تذكرته، ولم ينبس أحد من الركّاب بحرف. غاص الجميع في مقاعدهم. وبرقت في الجوّ المرتبك جمل غير منطوقة. جمل بقيت معلّقة تدور في ذهن أو آخر دون أن يسمعها أحد. ثمّ زحفت أعداد كبيرة من الديدان إلى العربة عبر نوافذها المفتوحة قادمة من النفق، وجلست بجوار الركّاب. كانت أجسادها اللزجة البيضاء تنفث حرارة شديدة في الجوّ، حتّى أنّ بعض الركّاب أخذ يمسح عرقه. انهمك السيّد فهمي في إزاحة أكوام الديدان الرفيعة بعيدًا عنه وهو جالس، انسحق بعضها في يده ونزّت عنه عصارة صفراء، وعندما ازداد عددها انتفض من مقعده وأخذ ينتزع الديدان الّتي التصقت بجلده بعصبية وهو يلهث. تضاعفت حرارة العربة وأخذت خيوط من الرطوبة تسيل على زجاج النوافذ المتّسخ. ثمّ زلّت قدمه فجأة وسقط وسط طبقات الديدان المتراكمة على الأرضية على مرأى من الجميع.

ارتجّت العربة داخل النفق المظلم، وانطفأت مصابيحها لوهلة بفعل الارتطام. وعندما عادت المصابيح للعمل رأى الجميع صبيّة تسير في اتّجاه المفتّش وهي تحمل شنطتها المدرسية. انعقد لسان المفتّش وأخذ يحدج فيها، كأنّه ينظر إلى مخلوق مقزّز. وقفت الصبية بجوار الرجل ونظرت إلى الأرض. وبقي الجميع في أماكنهم، حتّى اقتربت العربة من مخرج النفق فأسرعت جماعات الديدان الرخوة في الزحف عبر النافذة عائدةً. ووصلت العربة إلى المحطّة التالية فأخذت تبطئ من سرعتها.

السيّد فهمي لم يغادر العربة وبقي منهكًا على مقعده مع الركّاب القلائل الّذين بقوا، جسده ينشع عرقًا وملامحه غائمة كملامح من أصبح جزءًا من خلفية منحتها المدينة لمشهد ما. أخذ يفكّر في الديدان الّتي لم يكن يعرف بوجودها ولا يزال يشعر بلزوجتها على جلده. وأدرك أن عليه أن يكون أكثر حنكة في المرّة القادمة، وأن يجلس هادئًا مثلما يجلس الجميع يمسح عرقه فقط، وكأنّ الديدان مجرّد حفنة من الأوهام. ثمّ قرّر عدم العودة إلى منزله.

على رصيف المحطّة اقتاد المفتّشان الرجل والصغيرة أمامهما. حرُن الكلب فجأة ورفض المسير فأخذ المفتّش يجرّه بغضب. أخذت الصبيّة في البكاء بصوت خافت، ثمّ أفلتت شنطتها المدرسية فالتقطها الرجل وأعطاها إيّاها. كانا يدفعانه بأيديهما ليسرع من مشيته، جارّين خلفهما كلبهما العنيد. أمّا هو فكان يتمهّل ويقدّر. اقترب الأربعة والكلب من المكتب، ولاح رجال الشرطة من خلف الزجاج. انحرف الركب يمينًا قاصدين باب المكتب،

وقبل أن يصلوا إلى عتبته استدار الرجل فجأة إلى الخلف وغرز قبضتَيه في صدر المفتش المنفعل ودفعه حتّى كاد أن يسقط، في حين فغر الثاني فاه من وقع المفاجأة. ثمّ انطلق كالسهم وسط الجموع ومرق في اللحظة الحاسمة داخل عربة المترو على الرصيف الآخر، واصطفق بابها خلفه وهو يطلق النغمات التحذيرية، لتبدأ رحلة جديدة.

اللقاءات

رأسي يطفو بهدوء فوق الماء. يتذبذب صعودًا وهبوطًا بفعل حركة أطرافي المغمورة، ثمّ يتحرّك إلى الأمام. لا صوت إلا لرقرقة قطرات المياه الّتي يزيحها خلال حركته. أُصغي جيّدًا لعلّي أسمع صدى ما تقوله حبيبتي. أنجح مرّة وأفشل أخرى. على صفحة الماء ارتسم خطّان ينطلقان من رأسي الطافي ويتّجهان إلى الضفّتين الخاليتين. حتّى وصلتُ إلى نقطة على الضفّة اليمنى ظننتها غايتي، فخرجت ومن ورائي التأم النهر الّذي يشقّ المدينة من جنوبها إلى شمالها. الحديقة الّتي دخلتها كانت غارقة في صمت العاشرة. مررت بجوار البطّ الغافي على عشب الأمسية الشتوية الندي. أكملت سيري بهدوء في طريق لا أعرفها، ثمّ توقّفت فجأة مصعوقًا. كان هناك قطيع كامل من الوعول الصامتة، نبت من رأس كلّ وعل منها قرنان طويلان مدبّبان، لون أحدهما فاتح يقترب من السكّري، ولون الآخر غامق يقترب من الكحلي. وقفت وحيدًا تتساقط قطرات المياه من جسدي وفكّرت: كلّ هذه القرون! ثمّ نظر إليّ أحدهم دون أن ينهض ونظرتُ إليه. أصخت سمعي لكي ألتقط صدى حبيبتي، وقلتُ للوعل: أنا ابن مدينة وإن خلَت، وأنت وحش أخافُ منك.

سرَت حركة ودمدمة في القطيع سرعان ما هدأت. وانتابني يقين مفاجئ بأنّ الصدى لن يتناهى إلى مسامعي مرّة أخرى.

عندما يعود إلى غرفته من الشركة حيث يعمل كمترجم، يدخّن ثمّ يسترخي. يقوم بفصل الدائرة اللغوية، ويبقى بعض الوقت ساكنًا خارج مملكة الكلمات. يختبر الحالة المبهمة الّتي تظهر عليها أفكاره ومشاعره في هذه اللحظة، فيشعر أنّها تشعّ قدرًا من الألفة رغم غموضها المخيف الناتج عن فقدان القدرة على تمييز أجزائها. كانت تتقارب فيما بينها حتّى تنصهر فيشملها الدفء والحميمية، تتداخل كأنّها كائن عضوي واحد، وهي في ذلك لا تظهر بمظهر من ينتقل إلى طور جديد بل من يعود إلى طبيعته الأصلية. شيئًا فشيئًا يتغلغل داخله إحساس مرهف بأنّه يحيط في هذه اللحظة بمجمل حياته مكتملة غير مجزّأة. وفجأة يقطع الرنين الإلكتروني الأجوف لتليفونه هدوء الغرفة، فيثوب إلى رشده فورًا ودون أيّ تردّد. فالسنوات الّتي قضاها مشرّدًا بين عالمين علّمته سرعة الغلق والفتح، ومرونة الانتقال من سياق إلى آخر. وها هي الخروشات تعود والماكينة تستيقظ، تنتزع نسيرة من ذلك الكائن العضوي، تخلّصها من العروق الّتي علقت بها، تدخلها أحشاءها، تُعمل فيها مكابسها وسكاكينها، تلبسها رداءً من حروف. يفتح فمه الموضوع على السمّاعة لتخرج كلمة محايدة لا تنتمي للغة بعينها، كلمة سيسمعها شخص من عالم آخر: آلو.

كانت زرقة السماء صافية عندما بدأ القصف وتعالت أصوات الانفجارات. بسَط خيميائيٌّ ذراعه فوق الخرائب المشتعلة، ثمّ أخرج رؤيا

يوحنًا من جيبه، وقال: من الأفضل دائمًا أن يكون لديك بعض الإجابات، من الأفضل دائمًا أن تكون مستعدًا. في السماء حلقت سلاحف صغيرة، ووقفت الملائكة السبعة وهي تنفخ أبواقها وتصب المياه في نهر المدينة. أكمل الخيميائي طريقه بحثًا عن حجر الفلاسفة وسط الأنقاض، فتبعه صبي. عثرا على الغراب الأسود، ثمّ البجعة البيضاء، ثمّ ريشة الطاووس ذات الألف لون. كان الخيميائي يغنّي أثناء سيره أغنية تقول: أنا أسير في المقابر، أقرع الشواهد بعظمة في يدي، أدقّ إيقاعًا ساحرًا، أدقّ إيقاعًا ساحرًا، لكن هيهات أن تدبّ الحركة، في أطراف الملائكة الحجرية. التفتَ إلى الصبي فجأة ولاحظ الليلة الطويلة السوداء الّتي تخيّم على روحه، فقال لا تحزن! سنصل حتمًا إلى البوّابة الذهبية. مرّ وقت طويل، دكّت فيه طائرات الـ اف 16 الأرض من حولهما دكًّا. وعندما ازداد هلع الصبي طلب منه الخيميائي أن يدقّق النظر إليه. تأمّل الصبي وجهه النحيل وشعره المسترسل وعينيه الغائبتين، رأى الخطّين الغائرَين فوق جبينه لكنّه لم يعثر على العلامة، لم تكن هناك علامة الفينيق الّتي طُلب منه أن يتطلّع إليها، لم تكن هناك علامة النجاة.

وجهه كان يقع في المنزلة بين المنزلتَين، فلا هو غريب أجهله، ولا هو قريب أعرفه. خرج إليّ من وسط الزحام، فتملّكني إحساس قوي وغامض بأنّني سأتذكّره فقط إذا تذكّرني هو. لم أستطع أن أرفع عينَيّ عنه، وأصبح وجودي في هذه اللحظة معلّقًا بطرف لسانه، إمّا أن يذكر اسمه فيلقي الضوء على بقعة توارت من حياتي لتعود إلى حظيرة ذاكرتي، وإمّا أن يستمرّ في تهكّمه وإنكاره فيتهاوى جزء آخر من وجودي. كان يقول إنّه لم يرني من قبل، ولا يعرف عنّي شيئًا، بل ويتّهمني بالسكر أو الغفلة. لكنّي

كنت متأكّدًا من أنّي أعرفه، ومن أنّه يعرفني، وأستغرب لماذا يريد انتزاع نفسه تمامًا الآن من حياتي؟ لماذا يتجاهل معرفتي وينكرني كأنّي مجرم أو مجذوم؟ وعندما أخذَت السحب الّتي يحتجب وجهه وراءها في الانقشاع ببطء ارتسمت أطياف أليفة، وشدّني الحنين إلى تلك البقعة من حياتي الّتي أصبحْت لا أعرف عنها شيئًا. طال وقوفنا وتقدّم الليل دون أن ينزاح عن قراره قيد أنملة، وشككتُ أنّ إنكاره ما هو إلا طريقته في المزاح فحاولت ثنيه عن لعبته الشرّيرة، لكنّه كان يزداد قسوة. ثمّ سألني فجأة من أنت إذن حتّى أفصح لك عن اسمي؟ فانعقد لساني ولم أعرف كيف أجيبه، وفقدت صوابي وأنا أرى ذاتي تنحلّ إلى آخرين مجهولين، فأصبحُ أنا أيضًا وجهًا فقد اسمه في زحام المدينة، فسددتُ إليه لكمة أسقطته على إسفلت الطريق، وانكببت عليه أمسك بتلابيبه وأضمّ قبضتي بكلّ ما استطعت من قوّة وأهوي بها إلى صدره ووجهه، لكنّه انتهز فرصة توقّفي لوهلة أحدّق فيها في وجهه وانتفض بجسمه ملقيًا بي جانبًا ثمّ نهض سريعًا وركلني في معدتي فتهاويت، انقضّ عليّ بسرعة أدهشتني لأنّني كنت أظنّ أن لكماتي جعلته خائر القوى، وركلني ثلاث مرّات حتّى انكفأت على الأرض ثمّ أدارني وطوّق عنقي بيدَيه حتّى كدت أختنق. أنشبت أظافري في ذارعه لكنّي لم أنجح في تحرير رقبتي، طفرَت دموعي ولمعَت في عينَيه كراهية لم أرها من قبل في عين إنسان، أردت خمشهما فانحرف قليلاً ليتفادى أصابعي فخفّت قبضته عن رقبتي، واستطعت لوي جذعي ودفعته فألقيته جانبًا. أقعيت على الأرض لكي ألتقط أنفاسي وأنا أرتعش ثمّ استدرت أنظر إليه، فنظر إليّ، كان الدم يخضب أسنانه بلون أحمر زاهٍ. ثمّ نهض كلانا مرّة أخرى. تبخّر العالم من.

حولنا، ورأيت في عينَيه تلك الرغبة المخيفة، الرغبة نفسها الّتي أخذَت تتفتّح داخلي، الرغبة في تهشيم رأسه حتّى تخرج تلافيفه.

انخرطتُ في تنظيم سرّي. كانوا كالأشباح لا أحد يلمحهم، وإذا لمحتهم لا تستطيع أن تميّز وجوههم من فرط سرعتهم. من حين إلى آخر أقابل أحدهم في الشارع، فيبتسم نصف ابتسامة ثمّ تلتقي أعيننا ولا نتوقّف. لا أتذكّر أنّني اشتركتُ مع أحد منهم في أيّ حوار، إذ لم يكن هناك اجتماعات أو مناقشات بل كنّا نجوب الشوارع كالمجانيب ونسرع الخطى بقدر ما نستطيع حتّى نقع صدفةً على أحدنا، فنقترب وتنطلق عيوننا غير عابئة لكي تقتنص نظرة وحيدة من عين الآخر. وكثيرًا ما يحدث أن تصطدم بأحدهم دون أن يسبق لك رؤيته فيتسرّب إليك الشكّ أوّلاً وتستبعد أن يكون لهذا التنظيم ذلك العدد الكبير من الأعضاء، حتّى تأتي تلك النظرة الخاطفة الّتي لا تخطئها، كنبضة كهربائية تشقّ الجوّ وتنفذ عبر الهواء لترسم خطًّا رفيعًا يجمع بينكما، فيحصل المراد وتأتيك القوّة وتعرف أنّك أصبحت غير مرئي.

بهرت عيناي الشمس وأنا أسير ملهوفًا إلى بيت صديقي. فتح لي الباب وهو يرتدي بيجامته وسألني: هل أنت مستعدّ؟ ثمّ ألقم الشريط فم المشغل. جلست أشاهد تلال بومبي وأنا مسحور، وخفق قلبي عندما رأيت عازف الجيتار يقف فوق تبة المدينة المطمورة ويعزف لحنًا غريبًا. عندما انتهى شريط الفيديو أعدنا رؤيته مرّة ثانية، فزادت حماسة صديقي وألقى المزيد من الملاحظات التاريخية حول ما نراه، ثمّ أعدنا رؤية الشريط مرّة ثالثة ففهمنا بعض ما استغلق علينا. وتمنّيت أن نمضي سحابة نهارنا في غرفة صديقي

المظلمة الّتي في الطابق الثالث لا نفعل شيئًا سوى أن نعيد مشاهدة الشريط ونسمع موسيقاه. نبقى في لحظة مطمورة في الزمن كأننا أصبحنا من سكّان بومبي الّذين جمّدهم البركان. لكنّ نور الشارع نجح في جرح عتمة الغرفة عندما انتصف النهار، وازدادت حدّة الطرقات على بابها فلم يبقَ أمامنا سوى أن نغادرها لنواجه اليوم. في الطريق شربنا لبنًا فاسدًا. وسرنا تحت شمس لا ترحم، نفرط عقد المدينة شارعًا شارعًا ومنحنى منحنى دون أن يتوقّف اللحن الغريب عن الدبيب في أذني. دخلنا حيًّا لا نعرفه وقابلنا في طريقنا فتاة بلهاء أنشدتُها قصيدة سيّئة فأحبّتني. تأبّطتْ ذراعي وذراع صديقي وأخذَت تؤرجح ساقيها في الهواء وهي تقفز بيننا في سعادة. تركنا الحيّ وأكملنا المسير حتّى هدّنا التعب والجوع. نظرنا حولنا فرأينا تبة فأشار إليها صديقي وهتف: يا تبة اعصمينا. فخلّفنا المدينة وراءنا بأحيائها وطرقاتها وصعدنا تلُفّنا سحابة من غبار. وقبل أن تنقشع السحابة كانت جماعة من الأشرار تسدّ علينا الطريق وتسلبنا كلّ ما نملك ثمّ تتركنا نجمع ما تهشّم من أسناننا. جلس صديقي مهزومًا يفكّر، فقلت له لم يبقَ إلا القليل، لنكمل صعودنا. التمستُ شيئًا لا أعرفه في عينَي فتاتي البلهاء لكنّها أعلنت عن سأمها ثمّ تركتنا عندما اقترب المساء. فانقبضت أحشائي وأفرغت ما فيها من سائل أبيض ساخن. ثمّ قال صديقي وهو ينظر إلى المدينة الّتي التمعت أضواؤها بعد أن صفا الجوّ إنه عائد. أمّا أنا فزهدت في العودة إلى المدينة مرّتين واستويت على قمّة التبة وحدي أستنشق هواء منعشًا واستمع إلى اللحن الغريب الّذي أصبح أشدّ وضوحًا في أذني، وأفكّر في صديقي وفتاتي.

افتحْ المذياع. استمعْ إلى نشرة الأخبار. ارجعْ إلى صندوق بريدك الإلكتروني لتعرف إذا ما أتتك رسالة جديدة. زرْ موقع البي بي سي لمتابعة آخر التطوّرات. افتحْ بريدك الإلكتروني مرّة أخرى لعلّ رسالة جاءت الآن. اقضِ على أيّ فكرة قبل أن تختمر. زرْ موقع اليوبورن واخترْ فيلمًا لتشاهده. أثناء تحميل الفيلم الق نظرة سريعة على بريدك الإكتروني. زر الموقع المخصّص لإحصاء القتلى لمعرفة أعداد ضحايا التفجيرات الأخيرة. لا تدعْ لأيّ فكرة وقتًا لكي تختمر. البي بي سي دائمًا معك أينما كنت. عدْ بلهفة إلى بريدك الإلكتروني. افتحْ موقع اليوتيوب لتشاهد صور الجثث المتفحّمة. ابقَ فارغًا دائمًا كغرفة خالية نوافذها مفتوحة. عدْ لموقع اليوبورن واختر فيلمًا آخر. اتركْ نفسك لفيض الصور المشتّت حتّى تصبح ذرّة فيه. افتحْ بريدك الإلكتروني الآن لعلّ رسالة وصلت.

عادةً ما يبدأ الصباح باستئناف البثّ الإذاعي الداخلي، فتهدر الموجات العاملة كلّ حسب تردّده، وتنزاح الخروشات الصغيرة الّتي انفلتت من حلم بعيد جانبًا، مفسحةً الطريق أمام الوشيش الباطني حتّى يتكثّف من جديد. غير أنّ ما حدث لعائشة هذا الصباح كان أمرًا مختلفًا، فعندما فتحَت عينَيها لترى كالعادة قطعة السماء الصغيرة الّتي تطلّ من نافذتها المفتوحة، شعرت أنّها في عالم آخر. أغمضت عينَيها وغابت فترة ثمّ فتحتهما مرّةً أُخرى. السماء ما زالت زرقاء، وأصوات البيت تتناهى إلى سمعها، لكنّ شيئًا ما ظلّ غائبًا. حتّى أدركَت أخيرًا أنّ شريط الصوت الداخلي اختفى من المشهد، فهي لم تعد تسمع وشيشها المعتاد. نهضت قلقة وهي لا تفهم ما حدث، كان كلّ شيء حولها في مكانه كما تركته قبل النوم، لكنّ صوت وشيشها المبهم الّذي

يُكسب العالم واقعيّته قد اختفى. عندما تكرّر الأمر في الصباحات التالية قرّرت عائشة من قلّة حيلتها أن تحيط نفسها في البيت بدرقة من الصوت لتشغلها عن التفكير في خرسها الداخلي المفاجئ، وتخفّف عنها شعورها بالانفصام عن العالم. فكانت تجهر بصوتها عندما تتحدّث، وتشغل الراديو بصوت مرتفع، وتطلب من محدّثها دائمًا رفع صوته مدّعيةً ضعفًا مفاجئًا في السمع. وبمرور الأيّام أيقنت أنّ ما فُقد لن يعود واستسلمت لقدرها، وأخذت تؤدّي واجباتها الّتي ينتظرها منها الجميع ثمّ تجلس وسطهم دون أن يلحظ أحد أنّها أصبحت شبحًا، حاضرة وغائبة في آن. لسنوات طوال كانت عائشة تجلس مهدودة بعد أن تنحسر ضوضاء البيت تحاول سدًى أن تسترجع بأذنها الباطنية التردّد الفريد لوشيشها المفقود، .وتفكّر أنّ ذلك الوشيش الغامض لم يشفّ يومًا عن نغمة واضحة، وبالرغم من ذلك فهو بالضبط ما منحها شعورها المتماسك بذاتها. وذات مساء تسلّل إلى أذنها صوت ريح تهبّ من مكان بعيد ثمّ خطف سمعها صوت رفيع ممطوط صادر عن حنجرة غير آدمية، ففزعت عائشة من ذلك الصوت الّذي لم تعرف مصدره، ثمّ أهملته بعد قليل معتقدةً أنّه محض وهم. لكنّها سمعت في الليلة التالية صوتًا يشبه رفيف جناح فركّزت لوهلة وتأكّدت أنّها ليست واهمة إذ شعرت بموجات الصوت وهي تتسلّل من الخارج لتلامس طبلة أذنها. وعندما تكرّر الأمر في الليالي التالية خافت من أن تكون قد جُنّت، فقرّرت تشغيل الراديو طيلة الليل أثناء نومها حتّى يطرد تلك الأصوات، لكنّها كانت تنجح رغم كلّ شيء في التسلّل إلى أذنيها. لم تكن الأصوات تقول أيّ شيء واضح، كانت أصوات غريبة قادمة من عالم آخر. وفي بعض الليالي كانت عائشة تفيق من نومها على وقع هذه الأصوات فتندهش من غرابتها، بعضها كان ثقيلاً على الأذن

كأنّه قادم من باطن الأرض. وبعضها الآخر خفيفًا يشبه الخروشات فكان يثير ضحكها. الدرقة الصوتية الّتي طالما أحاطت عائشة نفسها بها بدأت تتراخى مفسحةً المجال لأصوات خارجية تربطها بعالم آخر بعيد. وبمرور الأيّام، وبعد أن قلّت واجباتها وهدأ البيت حولها استسلمت مرّة أخرى لقدرها: فكانت تجلس وحدها مساءً وهي تصغي بحنان إلى هذه الأصوات الغريبة الّتي تحيطها، وتشعر أنّها تنتمي إليهم كأنّهم أبناء لم تنجبهم عادوا إليها بعد أن فرّقتهم الطرق.

لا يسمع رائد الفضاء سوى صوت تردّد أنفاسه بعد أن يغادر كبسولته المعدنية. يتناهى إليه شهيقه وزفيره كوقع قدمَين مجهدتَين، بينما هو ساكن في مكانه. رائد الفضاء يطفو في الفراغ الواسع محصّنًا داخل سترته.ضدّ البرودة وانعدام الضغط وفقدان الجاذبية، ينظر من وراء قناعه الزجاجي المعتم إلى الكوكب البعيد الصامت. عيناه مشدودتان إلى التفاصيل الصغيرة الّتي تندمج على البعد. يراكم بدأب أجزاء الصورة وهو يدور حول الكوكب الّذي يدور حول نفسه. مهمّته كانت الوصول إلى الصورة الأكثر نقاء للكوكب، الصورة الّتي ستمكّنه من أن يشمله في كلّيته ويراه بعيدًا عن كلّ ما يحجبه، خارج أيّ سياق يجزّئه، وبمعزل عن أيّ منظور يختزله. عندما سألهم لماذا لا يرسلون كاميرا لالتقاط تلك الصورة، أجابوه بأنّ صورة بمثل هذا النقاء الفائق لا يمكن أن تنطبع على شريط سيلولويد أو شريحة إلكترونية، وإنّما يمكن لوعي بشري فقط التقاطها وتسجيلها. رائد الفضاء أمضى سنوات وراء سنوات وحيدًا ينظر بصبر، خطوات أنفاسه تعمّق وحدته وغرقه في نفسه. غير أنّ الصورة النقية لم تنطبع في ذاته بكافّة تفاصيلها،

وإنّما كانت ذاته تغيب شيئًا فشيئًا، تتسرّب إلى هذا الفراغ الهائل الّذي يحيط بها. وكم كان يأسه كبيرًا عندما أدرك استحالة مهمّته، فكلّما شحذ وعيه لالتقاط أجزاء الصورة بدقّة غرقَ في نفسه أكثر ليغمّس تلك الأجزاء في مخزونه الذاتي حتّى تنطبع على صفحته. وكلّما غرقَ في نفسه أكثر تسرّبت نفسُه خارجة إلى الفراغ الواسع، حاملة معها ذلك المخزون ليتبعثر وسط الغبار الكوني المحيط. رائد الفضاء فكّر محبَطًا في العودة إلى كبسولته وإخطار مركز التحكّم بضرورة إنهاء المهمّة لخطأ افتراضها النظري، لكنّه جزع من أن يترك ما تسرّب من ذاته هائمًا في الفضاء. كان خائفًا من أنّه لن يستطيع أن يملأ الثقب الّذي شعر به يتّسع داخله عندما يعود. رائد الفضاء بقي حائرًا وهو يستمع إلى وقع أنفاسه، يحاول أن يتّخذ من إيقاعها عونًا لترميم وحدته الغاربة، حتّى اخترقته فجأةً نبضة قوية، كانت كقوس واسع يمتدّ ليربط تفاصيل الكوكب بكلّ ذرّة وعي تسرّبت إلى الفضاء. نبضة وحيدة سرت خلال رائد الفضاء ففهم أخيرًا حقيقة وضعه البائس، فهو قد أصبح بعد كلّ هذا النزيف مجرّد معبر أو بوّابة لا تختزن شيئًا وإنّما تصلح لمرور النبضات خلالها، والصورة الفائقة النقاء ليست سوى هذه النبضة الخاطفة الّتي لا يمكن رؤيتها ولا تسجيلها.

فهرس